تم تحميل هذا الكتاب
من موقع الملفات الاسلامية
http://islamicfiles.net

غش القلوب

islamicFiles.NeT

بقلم
دكتور مبروك عطية
الأستاذ بجامعة الأزهر

مقدمة

الحمد لله الذى جعل القلب موضع الاتعاظ بكتابه الذى أنزله على قلب نبيه ، والصلاة والسلام على حبيبه وصفيه سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه ورضى بسنته إلى يوم الدين ؛ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ..

وبعـــد ..

فهذا كتاب سميته « غش القلوب » أحاول فيه أن أبحث هذه الظاهرة التى ما عادت تخفى على أحد ، ولم يسمها أحد بهذا الاسم ، ولم يضع لها هذا العنوان ، وأنا على يقين أن القارئ الكريم سوف يسعد بهذا العنوان كما يسعد بقراءة شعر يعبر عما فى نفسه ، وكأنه هو الذى كتبه أو الذى أملاه الشاعر؛ ومن ثم قال أهل الأدب : إن الشاعر مرآة المجتمع ، وأنا أرى كذلك أن الداعية مرآة مجتمعه ؛ لأنه يصور ذلك المجتمع الذى هو أحد أفراده فى ضوء الفكر الدينى المستنير ، الذى اكتسبه من ثقافته الواسعة ، ونذر له عمره ، واستقاه من نصوص دينه ، وشرح العلماء الثقات لها ، وكان على اقتدار بربطها بواقعه الذى هو واقع الناس ؛ فإن الدين ما جاء إلا لعلاج الحياة بواقعها ، فما كان فيها من جميل أقره كالكرم والشجاعة والجوار ، وما كان فيها من قبيح حرمه كوأد البنات ، وسائر المنكرات ..

وقد عرفنا الغش فى البضائع والسلع دينًا بأنه حرام ، واجتماعًا بأنه مذموم ، وتجارة باجتناب مرتكبه ، وعدم التعامل معه قدر الطاقة ..

ولكن ما عسى أن نقول فى غش القلوب ، وهو أشد خطرًا من غش البضائع ..

والسلع ، قد تردها بدون مشكلة ، وهـــذا حقك شرعًا ، وقد تقبلها إن كان الأمر هينًا ، ولكن كيف ترد إنسانًا تبين لك غش قلبه وقد يكون زوجًا ، أو زوجة ، وقد يكون أخًا ، أو جارًا أو أستاذًا أو تلميذًا ..

وقد تكتشف غش البضائع والسلع فى وقت قصير ، لكن اكتشافك غاش القلب لا يكون أحيانًا إلا بعد زمن طويل ؛ لأن الإنسان يملك أن يخفى غش قلبـــه بحلاوة لسانه وكذبه ؛ فيخدعك دهرًا حتى تسلمه نفسك وأنت مطمئن إلى صدقه ، فإذا أخذ منك بغيته بدت لك حقيقته ؛ فإذا الكارثة أقوى من احتمالك ، وإذا الأفق يبدو أمام عينيك سوادًا على سواد ﴿ ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ ..

فما معنى غش القلوب ؟

وما علاماته ؟

وما أثره فى الناس ؟ وما موقف الإسلام منه ؟

وما الضمانات التى نجدهـــا فى الفكر الدينى للنجاة من هذا الشر المستطير ؟

وأظن أن الإجابة عن هذه الأسئلة تفى بالمقصود من هذا العمل الذى أحتسبه عند الله ــ عز وجل ــ وأسأله أن يتقبله عملاً صالحًا ينتفع به العباد إنه ولى ذلك والقادر عليه ..

مبروك عطية

الأستاذ بجامعة الأزهر

الفصل الأول

غش القلوب وعلاماته

غش القلوب أن يظهر الإنسان بلسانه نقيض ما فى قلبه ، وذلك إذا خاطب فريسته ، وأن يعمل أعمالاً منافية للشرع ، وهو مصر عليها [خلاف المؤمن الذى يرتكب السوء بجهالة ثم يتوب من قريب] ..

ألا ترى إلى قـــول الله ــ تعـــالى ــ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ (البقرة : ٢٠٤) ..

وما أكثر هؤلاء فى زماننا الذين يجيدون معسول الكلام وهم يضمرون مر الفعال ، فقط ينتظرون الفرصة المناسبة كى ينقضوا على فريستهم انقضاض الوحش الكاسر ، تلك الفريسة التى استرخت حين سمعت هذا الكلام الجميل ، ونامت على صدر الأسد تحسبه من حلو كلامه ريش نعام ، ومن تحت رأسها بركان لا تشعر به من سحره ، ذلك السحر الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « إن من البيان لسحرًا » ..

ذلك السحر الذى غفلنا عنه تمامًا وولينا وجوهنا شطر السحر الآخر الذى إن كان له من وجود أذهبته المعوذتان ، إذا كنا على يقين من ذلك ..

ونحن حين نصدق غاش القلب إنما نشجعه ، ونكثر مـــن أمثاله ، وحين نصفق له إنما نعطيه جائزة فورية ؛ حتى يخدعنا أكثر ويخدع غيرنا أكثر ..

والدليل على ذلك من واقعنا :

١ ــ أننا نصفق لمرشح تكرر نجاحه بمجلس الشعب ، ولم يفعل شيئًا ؛ فكم قال وكم كتب برنامجًا لآخر ما ترى من إنشاء ، وصور حياته الفداء لأبناء دائرته الأعزاء ، وصور حياتهم إن نجحوه خلوًا من الأعباء والإعياء ، فسوف يجعل من حيهم آية نظافة ، ويبنى لهم المدارس ، والمساجد ، والمستشفيات ، وسوف يوفر فرص عمل للعاطلين ، ويطالب بزيادة رواتب العاملين ، وسوف يحارب الفساد الذى استمر سنين ، ولن ينام الليل ولن يهدأ بالنهار حتى ينام الناس فى دائرته مسرورين ..

ولما نجح رآه الناس نائمًا بين النائمين فى المجلس ، ويصحو على تصفيق المصفقين فيه ، الموافقين على قوانين مرهقة للشعب ، ومنها الضريبة العقارية ، التى تسعى إلى تخريب الانتماء للوطن حيث يشعر المواطن بالغربة الحقيقية فى وطنه ، وكم ناديت الرئيس والحكومة بإلغاء هذه الضريبة السيئة فورًا وكم لها من بديل يدر على البلاط أموالاً ، لكنه عجز الفكر الذى أهمل النافع طويل المدى من المشروعات والاستثمارات ، ولجأ إلى الشيطان القريب من فرض مثل هذه الضريبة ، وما أشبه هـــذا العقل بعقل اللص الذى صدت نفسه عن العمل وتفتحت للسرقة ؛ حيث رآها أسرع جمعًا وأكثر ، فلم يوجع قلبه ويرهق ساعده فى عمل مضن تكون نتيجته قروشًا زهيدة ، بينما هو قادر على أن يجمع الملايين بخفة يد ، وفى أقل زمن !

إن مثـــل هذا النائب غاش القلب ، ونحـــن نشجعه إذ نصفق له وننجحه ونحن نعلم أنه لن يفعل شيئًا ..

ومن شجع ظالمًا على ظلمه كان مثله ، وقد قال ﷺ : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ..

وإذا كان مفاد الحديث وجوب الحيطة والحذر وأن يكون المؤمن على خبرة بمواضع الأخطار إلا أننا أصبحنا نلدغ من الجحر الواحد ألف مرة بمزاجنا ، وبرغبة منا وهذا نذير بأن فى قلوبنا غشًّا كذلك ؛ فإن ذا القلب السليم مـــن الغش لا يرضى بالغش ، ولا يحب أهله ولا يواكلهم ولا يصادقهم ، وإنما يفر منهم فراره من الأسد المفترس ..

٢ ـــ ومن أمارات غش القلوب أن ترى المرء إذا كان له الحق جاء مسرعًا ، ورضى بحكم الله ورسوله ، وإن كان عليه الحق تولى معرضًا مع ادعائه أنه مؤمن ..

وقد جاء ذلك فى سورة النور حيث قال الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ
ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (النور : ٤٧ ـــ ٥٢) .

هذه صورة واضحة لغش القلوب ، وهى متوفرة عند كثير من الناس ليس فقط إذا دعوا إلى حكم الله ورسوله ، وإنما إذا دعوا إلى مجلس عرفى من مجالسهم التى عرفت بشىء من العدل والإنصاف ، إذا عرفوا أن لهم الحق جاءوا من بعد الفجر ، وقعدوا ينتظرون الحكم الذى يعرفون أنه لصالحهم ، وإذا عرفوا أن عليهم الحق ، وأنهم سوف يدفعون شيئًا هربوا وزاغوا ، وأخذ الناس يبحثون عنهم فى كل مكان ، وإذا حضروا جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، وفى النهاية يتهمون من حكم عليهم بما يستحقون بالظلم والمحاباة لخصمهم ، وفضحوه بين الناس ، وقالوا فيه ما لا يقال ..

كهذا الزوج الذى شكته زوجته إلى القاضى الشعبى ، وكان ظالمًا لها ؛ فقضى عليه ؛ فقال :

فتـــن الشعبى لمـــا مـــد بالعيـــن إليها
فتنتـــه بجمـــــال وبخطى حاجبيهـــا
قـــال للشرطى قدمهـــا وقدم شاهديها
وقضـــى زورًا على ولم يقـــض عليهـــا

وفى السيرة النبوية حدث هـــذا حيث تخاصم رجـــل والزبير بن العـــوام إلى رسول الله ﷺ ، وكانا جارين فى الأرض : أيهما يسقى

أولاً ؛ فقال ﷺ : « اسق يا زبير ، وحـــول الماء لجـــارك » ؛ فقال الرجل للنبى ﷺ :

ألأن كان ابن عمتك ؟!

فغضب النبى ﷺ وأعاد الحكم وشدد ، فقال : « اسق يا زبير حتى يبلغ الماء الجَدْر » ..

(أى جذور الزرع ، أى اسق حتى يبلغ الماء أصول الزرع ، قضى أولاً بمنتهى الرفق ، فلما رأى ما رأى من الرجل قضى بمنتهى العدل) شرح القسطلانى على صحيح البخارى ..

وكان الحكم بلا شك عين العدل ؛ لأنه من يعدل إن لم يعدل رسول الله ﷺ ، لكنه لما لم يكن لصالح الرجل قال ما قال ، وما كان ينبغى له أن يقول ذلك ، لكنه شىء من غش القلوب ..

وما أكثر هذا الصنف المغشوش من القلوب فى زماننا ، إذ قل من تجده يرضى بالحكم عليه كما يرضى بالحكم له ، وقد روى أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ خاصم نصرانيًّا على درع كانت له ، وفقدها ، فرآها مع ذلك النصرانى ، فقال القاضى له :

« أمعك بينة يا أمير المؤمنين ؟ » ..

قال : لا ..

فقال القاضى : لا أستطيع أن أحكم بها لك ..

فقال الإمام :

صدقت ، فلما هم بالانصراف ، وهو راض بالحكم ..

قال النصرانى : أهذا حكمكم ؟

قال القاضى : نعم ..

فقال : إن هذا حكم الأنبياء ، وأشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ، ودخل الرجل فى الإسلام بلا سيف وبلا خطب رنانة ، وإنما لما رآه من حكم ذى منهج ، ورضا بهذا الحكم من رأس الدولة ﷺ ..

والمنهج كما بينه رسول الله ﷺ : أن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ..

وذلك لأنه ﷺ كما بين لو أخذ الناس بدعواهم لضاعت أموال ، ودماء ..

ومن أجل ذلك كان رضا صاحب الحق بالحكم الذى يبدو ضده مراعاة لتلك القاعدة ؛ حتى لا يكون له استثناء ، يؤدى إلى فساد كبير ، ومن آثر المصلحة العامة على مصلحته الخاصة كان ذا قلب

سليم ، وكذا من رضى بأن يدفع ما عليه دون مجادلة بالباطل وتولٍّ ، وإعراض ..

إن من آيات غش القلوب أن يقبل المرء إذا كان صاحب حق ، وأن يعرض إن كان الحق عليه ، وما أكثر هؤلاء فى هذا الزمان !

٣ ــ عدم الفرح فى مواضع الفرح ..

ومن علامات غش القلـــوب عدم الفرح فى مواضع الفرح ، فالله ــ تعالى ــ يقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (يونس : ٥٨) .

وقد ذكر الشهاب الخفاجى ــ رحمه الله ــ أن للنعمة لسانًا تخاطب به ربها ، تقول نعمة : يا رب أبقنى فى بيت فلان ؛ فإنه كلما رآنى فرح بى ، وشكرك على ، وتقول نعمة أخرى : اللهم انقلنى من بيت فلان ؛ فإنه كلما رآنى لم يفرح بى ، ولم يشكرك على ...

وهـــذا الدين دعـــوة للفـــرح والسعادة ؛ ألا ترى إلى قـــول الله ــ تعالى ــ : ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ (طه : ١ ــ ٢)

وقد قال عليه الصلاة والسلام ــ حين عاد جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه من الحبشة ، وقد فتح الله لرسوله خيبر :

« لا أدرى بأى الأمرين أُسر : بفتح خيبر أم بعودة جعفر! »

وما أكثر دواعى الفرح لمن يبحث عنها وسوف يجدها ؛ لأنها تبحث عنه ، ولكن على شرطها ، وشرطها أن تلقاه باحثًا عنها ، فإن لقيته باحثا عنها عانقته ، وإن لم تجده وقفت تنتظر ؛ لعله يناديها ، ويسألها : أين أنت ؟

وعندئذ تقول له : ها أنا ذا أمامك ، وبين يديك ، لكن وقوفها لا يدوم طويلاً ؛ لأن الوصال مع الصدود الطويل لا يدوم :

صددت فأطولت الصدود وقلما وصال على طول الصدود يدوم ..

وقد وسع الإسلام دائرة الفـــرح ؛ فدعا المسلم إلى الفـــرح بما عنده من نعم الله ــ تعالى ، وهى كثيرة قال الله ــ عز وجل ــ : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم : ٣٤) .

لكن المأساة أن ريحًا غير طيبة ساقت إلى كثير من الناس أن النعمة فى المال وحده ، فإن توفر المال وجدت النعمة ، وإن لم يتوفر فلا نعمة ..

سلعة ثقافية مغشوشة أدت إلى غش القلوب ، وقـــد ذكـــرت قول الله ــ تعالى ــ ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (يونس : ٥٨) .

وقد تجد امرأً ذا عافية فى بدنه ، وذا أمن فى سربه ، وذا زوجة وفية ، وذا جار طيب غير مؤذٍ ، وله ولدٌ بارٌّ ، وغير ذلك مما لا يحصى ، ولا ينظر فى ذلك كله ، وإنما ينظر فى المال ؛ لأنه لا يرى النعمة إلا فيه ،

ولا يفرح إلا به ، وهو كذلك لا يفرح ؛ لأن طالب المال لا يشبع ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى ثانيًا ولو كان له اثنان لتمنى ثالثًا ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » ..

ومن توسع الإسلام فى الفرح دعوته إلى الفرح لفرح الآخرين ؛ حتى لغير المسلم ألا ترى إلى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾ (الروم : ١ ــ ٥) .

وفى الصحيح يقول رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ..

ومن هذا الحب العظيم أن يفرح لفرحه ..

ولأمر ما ــ لا شك أنه مــن غش القلوب ــ هناك من لا يعرف هذا الفرح ، بل إنه يحزن إذا أصاب أخاه خير ؛ لأنه لا يحب الخير له ؛ فبينه وبين الخير الذى يصيب غيره مبعدة نفسية ؛ فهو لا يرى أحدًا يستحق خير ما فى الدنيا غيره ..

إنه وحده الذى يستحق الخير دون سواه ، فسواه يستحق الشر والسوء والخسارة ، بل إنه لا يستحق الحيــاة أصلاً ، إنما يستحق الإعدام ، والحرق ، كما يقول ..

والوحيد الذى يستحق التكريم والتفضيل ، والمال الوفير ، والعيش الرغد ، والرفاهية هو وحده دون خلق الله ــ عز وجل ــ .

ومن ثم تراه لا يفرح بنجاح أحد ، وإذا نجح ولد جاره أمسك بأذن ولده وأخرج همه فيه ، وقال له :

كيف يحصــل هــذا الولد على مجموع أعلى من مجموعك ، وهو قد رقبتك ، وأبوه دون مستوى أبيك ، وأمه مثلها خادمة عند أمك ، ولا يأكل أكلك ، ولا يشرب شربك ، وليس عنده ما عندك ، يا ابن كذا وكذا ..

ويقول : فلان بنى عمارة أو عمارتين فى غمضة عين ، وهو فى سن أولادى ، أو من تلاميذى ، وأنا فى سن والده أو أستاذه ، ولم أبن غرفة ..

ويتهمه بأنه يعمل فى الممنوعات أو يقول العبارة الشائعة : « هى الدنيا تعطى الحلق من لا أذن له » ..

لا ينظر إلى ما بذله ابن جاره من جهد ، ولا ما بذله فلان من عمل حتى بنى ما بنى ، ومن العجيب أن بعض هؤلاء لا يرى أن الخير صادف أهله ؛ بسبب نسب متواضع سمع أحدهم أن شابًا دخل كلية الطب ؛ فبهت وقال :

فلان هذا ابن الكلاف ــ عامل الزراعة المتخصص فى رعاية المواشى ــ سيصبح طبيبًا !

فقط لأنه ابن كـــلاف ، كأنه يـــرى أنه لا يستحق أن يكون طبيبًا لهذا السبب ..

فما الفرق بين هذا المنطق ، وبين قول الكافرين : ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ (الفرقان : ٤١) .

لا شك أنه لا فارق إلا فيما يقوله الناس عندما يسمعون تلك العبارة ، ويقولون : معاذ الله ، هناك ألف فرق بين المؤمن والكافر ، وكأن المؤمن ملاك ، والكافر شيطان لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويغفل عن مثل هذا التشابك الخطير بينه وبين الكافر فى عبارات وأقوال ، منها هذا القول الذى يدل على أن الكافر إنما كفر ؛ لأنه استحقر الرسول ؛ الذى رآه وضيعًا مع أنه من أشرف الناس نسبًا ، وقد كانوا يقولون له عندما يلقونه : أنت تعلم قدرك فينا شرفًا ونسبًا ، وقد قال بعضهم كما جاء فى الكتاب الكريم : ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ (الزخرف : ٣١) ..

مع أنهم لو جاءهم رجل من القريتين عظيم لكفروا به ، ولما آمنوا ؛ لأن الإيمان مرده إلى الآيات البينات والمعجزات الباهرات التى يظهرها الله على يدى مدعى النبوة تصديقًا له وإرشادًا للناس كى يتركوا ما هم عليه من ضلالة ، ويهتدوا إلى الله ربهم المستحق وحده للعبودية ، لكن الكافرين كفروا عنادًا وحسدًا كما جاء فى حديث الأخنس بن شريق حيث جلس مع أبى جهل ليلة بدر ، وسأله :

هل تزعم أن محمدًا كذاب ؟ فقال :

كيف وما جربنا عليه كذبًا قط ..

فقال الأخنس : ولم جئنا لقتاله ؟

فقال أبو جهل : إذا كان فى بنى هاشم الرفادة والسقاية ، وكانت فيهم النبوة ، فماذا بقى لنا ؛ فتركه الأخنس ، وأخذ من معه من رجاله وانصرف ..

قال العلماء من أصحاب التاريخ والسير : وسمى الأخنس بهذا الاسم لذلك السبب لأنه تراجع ولم يحـــارب رسول الله ﷺ كما سمى إبليس الخناس ؛ لأنه يتراجع إذا ذكر الله ـــ تعالى ـــ وكذلك بهت الذى سمع أن ابن فلان الكلاف دخل كلية الطب إنما بهت لأنه يرى أن ابن الكلاف لا ينبغى أن يكون طبيبًا ، إنما ينبغى أن يكون كلافًا كأبيه ، حسدًا من عند نفسه ، ولم ينظر إلى جهده وما بذله من وقت وإعمال عقل فى سبيل الحصول على مجموع أهله لهذه الكلية كما أن الكافر لم ينظر إلى المعجزة التى أهلت ذلك الرجل لكى يكون نبيًّا ، وقد جاءهم بالقرآن الكريم حجة الله الباقية ، وهم أرباب فصاحة وبيان عقدوا من أجلهما الأسواق كعكاظ وغيرها وتباروا فيها وتسابقوا ونصبوا الأكابر ، من أجل التحكيم بين الشعراء ، وبيان الأشعر منهم بناءً على خبرتهم الطويلة باستعمال الفصيح العالى والموسيقى التى اكتسبوها من ممارستهم ، ومحاكاة بعضهم بعضًا ، وقد قال كبيرهم النابغة الذبيانى :

« دخلت المدينة وفى شعرى إقواء ، وخرجت منها وأنا أشعر العرب » ، فانظر إلى هذا الفحل من الشعراء الـــذى دخل المدينة وفى شعره إقواء (وهو اختلاف حرف الروى من ضم إلى كسر) ثم خرج منها وقد سلم شعره من هذا العيب المعروف وهو من عيوب القافية ، وكما روى أهل الأدب بأنه عرف الإقواء عندما غنى شعره ، فإن المغنى أشبع الحركات ؛ فتبين له اختلاف الضم والكسر مع هذا الإشباع ؛ فعرف عيبه وما عاد إليه ..

فلما استمع هؤلاء للقرآن الكريم وصفوه فقالوا :

« إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو من كلام الجن والإنس ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه » ..

فقائل هذه الكلمات لا يقولها إلا عن يقين بأن كلام الله مختلف عن الكلام الذى عهده سواء أكان هو من نظمه ، أم نظمه غيره واستمع إليه وعليه تربى وترعرع ، ودرج لسانه ؛ فصار فصيحًا يعرف الغث من السمين ، ويعرف المستقيم من المعوج ، وتلك التى تعرف بالسليقة أو الفطرة التى تكونت مع الإدمان لفصيح الكلام شعره ونثره على سواء ، فما الذى حال بينهم وبين الإيمان ..

لا شك أنه العناد ومحاكاة الآباء والأجداد والحسد الذى قال الله ــ تعالى ــ فيه : ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ (البقرة : ١٠٩) ..

وكذلك من كان فى قلبه غش ، فقد تبين له أن الطالب الذى دخل كلية الطب كان طالبًا مجتهدًا استذكر دروسه ليل نهار ، ولم يكن لعوبًا ولا هاجرًا كتابه ، فلو أنصف لفرح له ولوالديه لأنه مؤمن يعلم قول النبى ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ..

لكنه لم يرض من قلبه أن يكون ابن الكلاف طبيبًا ذات يوم ، إنما يريده كلافًا كأبيه ، وهـــذا مـــن غش قلبه ، وفساد ذوقه وضعف إيمانه ..

ولعل الفقه الإسلامى الذى كان حريصًا على أن يتيح الفرصة لمن هو لها أهل فى صلاة الجماعة خصوصًا الجمعة ، فالذى يأتى أولاً أولى بالقعود والصلاة فى الصف الأول ، بغض النظر عن كونه أميًّا أو عالماً ، رئيسًا أو مرءوسًا ، قويًّا أو ضعيفًا ، كما نهى الشرع الحنيف عن تخطى الرقاب رغبة فى القعود فى الصف الأول ، وقد شاهد النبى ﷺ من يفعل ذلك ؛ فقال له : « اجلس ؛ فقد آذيت » ..

فقد رآه ﷺ وهو يتخطى الرقاب فعده مؤذيًا كائنا من كان هو ..

لا شك أن الذى يتخطى رقاب الناس فى المجلس وصولاً إلى الصف الأول وهو ليس له أهلاً ؛ لأنه جاء متأخرًا فى قلبه غش ؛ لأنه رأى نفسه فوق الناس ، فهو يريد أن يتقدمهم وأن يكون سابقاً لهم حتى وإن جاء متأخرًا ..

ولو كان سليم القلب لجلس حيث انتهى به المجلس ..

وقد كان رسول الله ﷺ وهو قمة الناس وأعلاهم وأكرمهم وأشرفهم يجلس حيث ينتهى به المجلس ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا رأوه يفعل ذلك يستديرون له حتى يكون هو ﷺ فى صدر المجلس ، وتلك من المعادلات المفقودة التى صارت مهجورة فى زماننا ، وهى من المعادلة بين الحق والفضل كالمعادلة بين المتواضع ومن يتواضع معهم ، فالمتواضع إنما يتزل درجة عن درجته إشفاقًا ورحمة ، ولو تحققت المعادلة لما نسى الذين يتواضع معهم منزلته الأساس ومكانته اللائقة به ، فليس من المعقول أن يتواضع معك إنسان وهو والدك ؛ فتنسى أنه والدك وتعامله على أنه أخوك أو صاحبك ، وليس منه أن يتواضع معك أستاذك ؛ فتعامله على أنه زميلك ، إنما المعادلة تتحقق فى أن يتواضع لك وأنت تعرف له قدره فلا تعامله بما تواضع فيه وإنما تعامله بما يستحق من الأسلوب اللائق به قبل أن يتواضع ..

ولا شك أن فقدان هذه المعادلة جعلت الكثير من المتواضعين يعزفون عن هذا التواضع ويأبونه ، ولا يتواضعون لأنهم عرفوا أن التواضع ذل وأن الناس لا يقدرون المتواضع ولا يعاملونه بما يجب أن يعاملوه به ..

ولا شك أن ابن الكلاف يعرف حقد جاره عليه ، وهو بهذا الحقد يزرع فيه بغضه ، وكراهيته ، فإن صار ذات يوم طبيبًا فعلاً ، وجاءه ذلك الحاقد فهل تظن أنه سوف يعالجه كما يعالج سائر الناس ، أو كما يعالج شخصًا آخر يحبه ؟

إن كان هذا الطبيب سليم القلب عالجه كما يعالج من يحب دون النظر إلى سالف بغضه ، وحقده وسواد قلبه ؛ لأنه لا يعامل الإساءة بإساءة مثلها ، وإنما يعامل الإساءة بحسنة ؛ لأنه يؤمن بقول الله ـــ تعالى ـــ فى سورة فصلت : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ (فصلت : ٣٤ ـــ ٣٥) .

ومعنى ذلك أن سليم القلب لا يدفع السيئة بسيئة إنما يدفع السيئة بحسنة عسى الله أن يجعل عدوه حبيبه ، ومعوجه مستقيمه ، والبعيد عنه قريبًا منه ، أو على الأقل يتجنب الكثير من أذاه ومكره وسوءه ، وهو يفعل ذلك ابتداء طاعة لأمر الله وامتثالاً له حيث بينه فى كتابه وهو أهدى من غيره ، قال الله ـــ تعـــالى ـــ : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء : ٩) .

وقد يعامله معاملة سيئة أدناها ألا يحسن لقاءه ، فلا يبتسم فى وجهه ، ولا يبشره بشفاء ، وقد ينسى أن يكتب له بعض الدواء ، وهذا كله

مذموم معيب ؛ لأنه لم يستطع نسيان ذلك الماضى البغيض الذى كان يوم دخل كلية الطب وكان حاقدًا عليه ، وهذه الرواسب السوداء التى تتراكم مع الأيام من غش القلوب ، لكنه الغش الوليد من غش ؛ فقد أثر الحقد فيه حتى صار هو الآخر ذا قلب فيه غش ، وكما قالت العرب من قديم : (إنك لن تجنى من الشوك العنب) أى أن الشوك لن يطرح عنبًا ذات يوم وإن سقيته كل يوم سكرا ؛ لأن أساسه وجذره لا يقبل السكر ولا يؤثر فيه ..

وكثير من الناس يعانون من تبلد إحساس من يعاشرون ؛ فأنت ترى الزوج ناجحًا ولا تفرح زوجته لنجاحه ؛ وذلك إما لأنها ذات قلب فيه غش ، فهى لا تعرف الفرح أصلاً ؛ إذ إنها من بيئة النكد ، رضعته لبنًا من صدر أمها ، وتغذته طفلة من ثقافة بيئتها ، وشبت عليه فتاة من ثقافة سوداء حولها ، وأفلام ومسلسلات ، وشيوع روح الكدر ، الذى يعكر كل صفو ويجرح كل فرح ، ويقضى على أى بارقة أمل تلوح فى الطريق أمام عينيها ، فهى من الذين يقولون إذا ابتسموا : (اللهم اجعله خيرًا) ، مؤمنين بأن بعد الابتسام آلامًا سوف تأتى لا محالة ، وأن السرور أشبه ما يكون بجملة اعتراضية ، وقعت بين متلازمين كالمبتدأ والخبر ، والفعل والفاعل ، ولابد حتمًا أن يراعى المتلازمان ، وألا تنسى الجملة الاعتراضية هـــذا التلازم من فكر القارئ ، وإن كان يرى الاعتراض أمام عينيـــه فأنت إذا قلت :

(محمد ــ والله ــ مجتهد) ، كان القسم المضىء بلفظ الجلالة اعتراضًا بين المبتدأ (محمد) ، والخبر (مجتهد) ، وأنت لا تنسى هذا التلازم بين المبتدأ والخبر ، وإن أضاء الاعتراض أمام عينيك ، وإلا أخطأت فى الإعراب ، ومن أخطأ فى الإعراب فلابد أن يخطئ فى إدراك المعنى ؛ لأن الإعراب فرع إدراك المعنى ..

والاعتراض عند الذين يقولون بعد الابتسام : (اللهم اجعله خيرًا) اعتراض بين متلازمين هما الحزن أولاً والحزن آخرًا ، فالحزن مبتدأ والحزن خبر ؛ فكيف تكون حياة هؤلاء إلا سلسلة من الأحزان لا تنتهى ..

وليس لهذا من أصل فى دين الله الإسلام ، وليس له من سند ، إنما سنده من الشيطان ، وأنفسهم الأمارة بالسوء ، وقد قال الله ــ عز وجل ــ : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران : ١٦٥) .

وقد قال أحد الشباب الذى سئم الحياة مع أسرته : « إننى عندما قلت لوالدى : لقد نجحت بمجموع كبير ؛ قال : ثم ماذا ؟ »

كأننى لم أقل له شيئًا ، أو كأننى قلت له : إن ولد عدوك قد نجح ..

وقد تكون هذه الزوجة على منوال اللاتى يزعمن أن الزوج إذا نجح تزوج غيرها ، فمن الخير لها أن يتأخر لا أن يتقدم ، كالتى تقول ليل نهار لزوجها :

أنا أعلم أن الله إذا أكرمك بمال فلن تتأخر عن الزواج يومًا واحدًا ، إنما يمنعك الفقر ــ أدامه الله عليك ــ ، ومثل هذه الزوجة فى قلبها غش آيته سوء الظن بزوجها ، الذى هو سوء ظن بالناس جميعًا ؛ فلا أحد عندها يعرف معنى الوفاء ، ولا أحد فيما ترى يعرف معنى القيمة الحقيقية لزوجة أوتيت من الحسن ما يقر العين ، ومن الشرف ما يزهو به الزوج ، ومن النسب ما به يفتخر ، ومن الثقافة ما يثرى عقله ، ومن الدين ما يشرح قلبه ، ويكفل له حياة آمنة مستقرة ، وليس فى ضرورة تدفعه لكى يتزوج عليها ، أو ينظر إلى امرأة سواها ؛ لكنها ثقافة الغش الذى بنيت عليه ثقافتها ، ومن ثم صارت حياتها جحيمًا وإن كانت فى جنة وارفة الظلال ..

وهكذا تجد فقدان الفرح على مستوى الأسرة يهددها بالانهيار ، وما أشد حاجة الأسرة إلى الفرح الذى يؤلف الله به بين القلوب ..

وقد قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

ومن اللين الفرح فى موضع الفرح والسرور الذى تتفتح به الشرايين فإذا بهواء السعادة يغشاها وتخرج من ثمرات البهجة ما يشيع فى البيت دفء المودة وجمال الوصال ، وقد تجد صاحب الموقف الذى يستحق الفرح لا يشتد فرحه إلا بفرح غيره ؛ فهو يرى فرحة الناس

لا سيما فرحة أهله كأنها نابعة من فؤاده ، تجسدت أمام عينيه فصدق أنه بالفعل قد فعل شيئًا يستحق الفرح وأنه إذا فرح وحده فكأنه لم يفعل شيئًا ..

وما رأى الناس فرحًا لعرس ، فيه العروسان وحدهما ، وإنما عرف الناس أفراح العرس يحضرها المدعوون وغيرهم مما يشيع الفرح ، والبهجة فى نفس العروسين ، اللذين ينظران إلى الناس ، وهم فرحون ؛ فيفرحان ، وكأن فرحهما مستمد من فرح الجمهور الذى حضر من أجلهما ، وتزين وتجمل ، وتراقص ، وغنى ، وتمايل ؛ بهجة ، وسرورًا ، وكأنه هو صاحب الفرح ..

فهل رأيت عروسين يفرحان والجموع الحاضرة يخيم عليها الحزن !

إنهما ساعتئذ سيشعران أنهما فى مأتم ، وليس فى فرح ..

وما أكثر هذا الضرب من الخبل الذى يعيشه الناس ، فى بيوتهم ، وبين أهليهم ، الذين لا يشعرون بفرحهم ، وكأنهم غرباء ، بل إنك تجد الغرباء ، أحيانًا يفرحون ، ولا يفرح الأقرباء حقدًا وسوادًا فى القلوب التى دخلها الغش بسبب هذه الثقافة الجريحة للقرب ..

فإذا كان الأقربون أولى بالمعروف فالزوج أولى بأن تفرح له زوجته التى يطيب لها أن تسمى نفسها شريكة حياته وبئس الشريك إذًا ؛ لأن الشريكة تقسم الحياة بينها وبين شريكها ، وهى بلا شك حريصة على التهام ماله ، والحصول على ثمرة عمله وشقائه ..

أفلا تكون شريكة له فى فرحه ؛ إن الشركة بلا شك محتلة ، وذلك من غش القلب الذى احتواه صدرها ، فى الوقت الذى تجد فيه هذا الصدر فياضًا بالفرح عندما ينجح شخص آخر غير زوجها فقد تراها كأنها فراشة تطير فى هواء ، من السعادة ؛ فإذا سألها ذلك الزوج المسكين عن سبب هذه السعادة قالت :

(إن ابن أخى حصل على الابتدائية) ..

فهلا فرحت حين حصل زوجها على الدكتوراه ..

أو قالت :

إن جارتها قد زاد راتبها خمسة جنيهات ، فهلا فرحت يوم زاد راتب زوجها ألفًا ، وهى أول من ينتفع به ..

أم أنها من غش قلبها لم تر فى ذلك ما يدعو إلى الفرح ..

فإذا وجد هذا الزوج فتاة أخرى أو امرأة ، فرحت له ونصبت له من الفرح ميادين احتفال ، من نظرة معبرة عن فرح عظيم ، ومن ارتعاشة وجنتين كأنهما تقبلان من بعيد ، ومن قطعة حلوى كأنها أعدت من أجله احتفالاً به وحفاوة ، ومال إليها ، أو أحس بانتماء لها فهل نلومه ونرميه بالحجارة ، ونقول فيه :

إنه الزوج الخائن الفاسق ، زير النساء ، أم أن له عذرًا !

وأعجب العجب أنه لو تزوج هذه التى فرحت له لما فرحت بعد الزواج ..

فتلك آفة يعرفها الناس لكنهم من فرط ما بهم من الآلام يتعلقون بأمل جديد يظنونه حقًا وهو وهم فى ظل غش القلوب ..

فلا شك أنه تزوج الأولى ، ومن أهم أسباب اختياره لها أنها فرحت له وفرحت به ، يوم ساق إليها خبرًا سعيدًا ، أو زف إليها بشرى سارة ، فلماذا انطفأ هذا الفرح بعد الزواج ؟

لا شك أنه انطفأ ؛ لأنه لم يكن نابعًا من مشكاة حقيقية أصيلة ، وإنما كان باهتًا ، وإن لمع ، كالنور القوى من شمعة غير متينة المادة ، سرعان ما ينطفئ نورها لأنها لا تدوم طويلاً ، بخلاف المتينة الصلبة التى قد تستمر شهورًا طويلة ، وهى صافية صاف لونها ، وكأنها البدر الصافى الذى يشع ضوؤه فى ليلة بلا غيم ، ولا ضباب ..

ولأننا أبناء ثقافة القرب الجريحة التى تنادى بأن الغريب أولى بالمودة دون القريب ، وأولى بالفرح دونه ، وأولى بكل شىء ، أما القريب فهو أولى بالهجر وبالصدود ، ومن أقوال الناس فى ذلك وهو من فتاوى الشيطان بلا شك : (مال أهلنا حلال لنا) ، أى حلال أن يسرقوه ، ويعتدوا عليه ، ويأكلوه بالباطل ، وكأن الله ــ تعالى ــ حين قال : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ (البقرة : ١٨٨)

استثنى الأهل ، وأجاز لهم أن يأكل بعضهم مال بعض ، ولا استثناء أبدًا فى هذه الآية ولا فى غيرها من الآيات والأحاديث الناهية عن أكل أموال الناس بالباطل ، بل إن الأمر بالعكس ، فإن أكل القريب مال قريبه بالباطل أشد حرمة عند الله من أكله مال الأجنبى بالباطل ؛ لأنه إذا كان مطلوبًا من المسلم أن يصون مال أخيه المسلم ، فإن ذلك أشد طلبًا فى مال قريبه ؛ فهو أولى بالصون ، وبالرعاية ، ومعلوم أن الحرام بعضه أشد من بعض ؛ بدليل أن رجلاً سأل النبى ﷺ ، فقال : « أى الذنب أعظم عند الله ــ عز وجل ــ » ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : « أن تشرك بالله ، وهو خلقك » ، فقال : « ثم أى » ؟

فقال عليه الصلاة والسلام :

« أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك » ، فقال :

« ثم أى » ؟

قال عليه الصلاة والسلام :

« أن تزنى بحليلة جارك » ، أى بزوجته ..

فالقتل بدون حق حرام بلا شك ، وقتل الولد أشد حرمة ، والزنا بلا شك حرام ، وهو مع زوجة الجار أشد حرمة ..

وذلك بسبب القرب ، فكلما كان القرب كان الوصل والصون أشد ، بل وكان الأجر أكبر ؛ لأنه كما جاء فى السنة المطهرة : صدقة وصلة ..

وكذلك كلما كان القرب كان النهى عن الضرر أشد ، وكان الوزر أكبر ..

وهذا بخلاف ما يظنه كثير من الناس مع الأسف فى زماننا ..

٤ ــ عدم الألم فى مواضع الألم ..

قضيت وقتًا طويلاً فى كتابة عمل سميته : « الوجدان فى حياة النبى الإنسان » .

ومن هذا الوجدان أنه ﷺ كان يفرح فى سياق الفرح ، وكان يؤلمه أن يرى بؤسًا ؛ لأنه ذو قلب سليم ، لا غش فيه ، وقد قال الله ــ تعالى ــ له : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنعام : ٣٣) .

وقد قالوا : شـــاعر ومسحور وكاهن ؛ فأحزنه ذلك كما قال الله عز وجل ..

وحين سأل ابن مسعود أن يقرأ عليه القرآن ؛ لأنه يحب أن يسمعه من غيره ، وقرأ عليه ﷺ سورة النساء ، ووصل إلى قول الله ــ تعالى ــ :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ (النساء : ٤١) ..

قال له ﷺ : « أمسك » ، وإذا عيناه تذرفان ؛ لأنه النبى الرحيم بأمته الذى يعرف مقتضى الشهادة عليهم .

وقد بكى ﷺ يوم مات ولده إبراهيم ، وقال : « إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » ..

ووصف الدموع بأنها رحمة ، وأشار إلى لسانه ، وقال : « إنما يعذب الله بهذا أو يرحم » ..

وهناك من لا يعرف الدمع ، ولا يعرف الألم فى مواضع الألم ؛ لأنه ذو قلب قاس ، وقسوة القلب من كبرى الأدلة على غش القلوب ، فلم يعرف التاريخ مثل بنى إسرائيل فى لجاجتهم ، وقد قال الله ــ تعالى ــ فيهم : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (البقرة : ٧٤) .

وقد تألم ﷺ حين سمع أنين الأسرى أسرى بدر ، وفيهم عمه العباس ، وأمر الصحابة بفك وثاقهم ، والإحسان إليهم ..

وتألم ﷺ لبكاء امرأة فى السبى ، وسألها عن سبب بكائها ؛ فقالت : « فرقوا بينى وبين ولدى » ؛ فرد إليها ولدها ، وأوصى بهم ..

وما أكثر المواضع التى تشهد بذلك ، والتى تدل على سلامة القلب الذى احتواه صدر شرحه الله ؛ فاتسع للبدوى والحضرى ، والطفل والمرأة ، والمؤمن والكافر ، وقد قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب : ٢١) .

وليس من التأسى برسول الله ﷺ أن نعيش مواضع الألم وهى كثيرة ، وكأننا نعيش المسرات ، أو أن نتألم ظاهرًا ولا نهتم فعلاً بالذين يعانون ، ويتألمون ، ويموتون جوعًا ، وأقصى ما نقدمه لهؤلاء زفرة أسى ، ودموع كاذبة ، لا تعبر بصدق عن مشاعر تدل على قلوب سليمة من الغش ..

وإنما هى سائل رخيص أصدق ما فيه أنه غسيل لعين ليته ما غسلها ..

٥ ــ الكذب ..

والكذب آية من آيات غش القلب ، ويكفى أن مدمنه الذى اعتاده فاجر ، ففى الحديث : « ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذَّابًا » ..

ومن كتب عند الله كذابًا فلن تملك له من الله شيئًا ، ولن يصدق ذات يوم ، بل سيظل عمره يكذب حتى يلقى الله كذابًا ..

قال الله ــ عز وجل ــ : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ (المنافقون : ١)

فمن آيات المنافق الكذب ، فهل تظن أنه ذو قلب سليم ، وقد قال الله ــ عز وجل ــ فى آية التوبة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (التوبة : ١١٩) .

والصـــدق يكون فى القول ، بأن يطابق الواقع ، وأهم الصدق الصدق فى الفعـــال ، وهـــذا هو الهـــدف مـــن الابتـــلاء ، قال الله ــ عـــز وجل ــ : ﴿ الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (العنكبوت : ١ ــ ٣) .

وكم فى الناس من ذى قلب فيه غش فى هذه المسألة ؛ إذ يقول لك معسول الكلام ، ويعدك بوردى الوعود ، فإذا جاء اليوم الذى تحتاج فيه إليه ، واتجهت إليه ، وأنت على يقين أنه لن يخلف وعده ، بل سيعطيك ما تريد وزيادة ، رأيته يقدم لك الأعذار مرتبة حتى تظن بأنه صادق ؛ لأنه رتبها قبل أن يعدك ..

فأنت تسمع الناس يقولون : نأخذ من فلان قرضًا ، وهو رجل طيب ، وحين يأتى موعد السداد نقول له : إننا فى عسر ، أو نقول له : إن المرأة عملت عملية جراحية ، أو ساعتها تكون فلانة قد ولدت ، ونقول له : ولدت ولادة قيصرية (هو يعنى ح يقول وروني أشوف بطنها دا يمكن كمان يقول لنا دول نقوط العيل ، آه ولو جابت واد بسميه على اسمه عشان يعرف إننا بنحبه) وهات يا ضحك ..

إن هؤلاء يعدون للكذب عدته مسبقًا ؛ وقد يعدون دموعًا كذلك وثيابًا من أجل يوم جلاء الحقيقة ..

وهم بلا شك سوف يفتضح أمرهم :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم .

وقد تخلف رجال ثلاثة عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، وقد سميت غزوة العسرة ، وذلك لغير عذر كما تخلف كثير من المنافقين أيضًا لغير عذر ، لكن الفرق بين هؤلاء الثلاثة ، وبين المنافقين أنهم صدقوا ، أما المنافقون فقد كذبوا ؛ فانظر إلى الذى كان ..

لقد تاب الله على الثلاثة ، وأنزل توبتهم قرآنًا يُتلى ، فقال سبحانه : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (التوبة : ١١٨) .

أما المنافقون ففضحهم ، وأنزل فيهم سورة من سور القرآن ، سميت الفاضحة ، وهى سورة التوبة ، بين فيها ربنا تعالى أنهم كاذبون ، وأنهم رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع الله على قلوبهم ، وحرمهم شرف الجهاد مع رسول الله ﷺ فى المستقبل : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (التوبة : ٨٣).

ونهى رسوله ﷺ أن يصلى على أحد منهم مات أبدًا ، فقال بعد هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (التوبة : ٨٤) .

وما سميت سورة التوبة بالفاضحة إلا لأنها فضحت هؤلاء المنافقين الذين كذبوا ..

وأنت كما ترى فى السورة نفسها أن الله ــ تعالى ــ تاب على الثلاثة الذين صدقوا ، وتوعد الذين كذبوا وفضحهم ..

وقد مات المنافقون وهم فاسقون وكان جزاؤهم جهنم بما كذبوا مع الكافرين فى الدرك الأسفل منها ..

فالكذب آفة الآفات وأقوى الآيات على غش القلوب ..

وقد شرف الله الأنبياء جميعًا عَليهم السلام بأنهم صادقون ، وجعل من دعائهم : ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔـَٰخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الشعراء : ٨٤) ،

فهذا خليل الله إبراهيم عليه السلام لا يريد أن يكذب عليه أحد فى سيرته ، وإنما يسأل الله ــ تعالى ــ أن يعد له لسان صدق يتحدث عنه بالحق لا بالكذب والباطل ، ثم سأل الله بعد ذلك جنة النعيم .

وقد دخل ثلاثة على النبى ﷺ فى مجلسه ، فوجد أصدقهم فرجة فجلس فيها ، وقال فيه النبى ﷺ : « أقبل على الله فأقبل عليه » ..

والآخر جلس خلف المجلس فاستحيا ، وقال فيه النبى ﷺ : « فاستحيا الله منه » أى غفر له ذنبه ..

أما الثالث ــ وهو بيت القصيد وموضع الشاهد ــ فأدبر وأدبر الله عنه ، حيث خرج متعللاً بأنه لم يجد له مكانًا ، ولو صدق الله لوجده ، لكنه كالذى قال : (بركة يا جامع) ..

فمن رآه وهو يدخل مع صاحبيه قال : فارس من فرسان العلم ومجاهد فى سبيل تحصيله ، وهو كاذب يتحين الفرصة كى يستجيب لهواه ويمضى سريعًا ؛ فقد جاء رغمًا عنه ساقه قدر لطيف ، لكنه السخيف الذى لا يعرف سبيلاً إلى مجد ، ولا طاقة عنده تمده بالعزم وقوة النظر ، والبحث عن مكان ..

وروى السهيلى فى الروض الأنف أن رجلاً جاء فبايع النبى ﷺ ، ودخل فى صفوف المجاهدين ، فلما وزع النبى ﷺ الغنائم أبى أن يأخذ منها حظه ، وقال للنبى ﷺ : « ما بايعتك على هذا ، وإنما بايعتك

على هذه » وأشار إلى رقبته ، فقال له النبى ﷺ : « اصدق الله يصدقك » ؛ فدخل فى جهاد جديد فقتل ، واللطيف فى هذه الرواية أن بعد الصحابة نظر فيه ، وقد ودع الدنيا فوجد أن سهم العدو قد أصابه فى رقبته فى الموضع الذى أشار إليه بأصبعه ساعة قال للنبى ﷺ : « بايعتك على هذه » ، فقد صدق الله فصدقه الله ..

وكذلك الحال فى كل صادق ثبت الصدق فى نيته ، واستقر فى قلبه ، يهيئ الله له من الأسباب ما لا يحتسب حتى يبلغ الغاية التى صدق فيها .

ألا تـرى إلى قـول الله ــ تعـالى ــ مـن سـورة النسـاء : ﴿ فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ (النساء : ٣٥) .

سواء أعاد الضمير على الحكمين أو على الزوجين ، فلا فرق من حيث الإعراب أو من حيث المعنى ، لعموم القاعدة بأن من أراد الخير وصدق وفقه الله إليه ..

ولقد كان المسلمون يوم بدر بلا شك صادقين ؛ فنصرهم الله لأن من نصر الله نصره ، أى من نصر دين الله نصره الله ، ودين الله قائم على الصدق ، قال تعالى فى آية آل عمران : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ (آل عمران : ١٣) .

والتقوى جماع الخير كله ، ومبتغى كل مؤمن صادق ، جاءت على أسلوب الحصر فى آية الزمر ، حيث قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الزمر : ٣٣) .

وقـد صدق المؤمنون يوم الأحزاب إذ هجم على المدينة أعداء الصدق من كل صوب ، فلما رآهم المؤمنون قالوا : ﴿ هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا ﴾ بينما قال المنافقون فى الموقف نفسه : ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ (الأحزاب : ١٢) ، وقال بعضهم كما جاء فى السير : كان محمد ﷺ يعدنا بملك كسرى وقيصر والرجل منا لا يستطيع قضاء حاجته ، فلئن صدقنا فلنحن أكفر من حمير ..

وهذا شأن كل كاذب يحاول أن يخفى كذبه ساعة الرخاء ، فإذا جاءت الشدة كشف المستور ، واتضحت الظلمة من النور وعرفنا الصادق من الكاذب ، ومن أجل ذلك قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (العنكبوت : ٣) .

والفتنة بمعنى الشدة والاختبار ، وهى تمحيص القلوب وإخراج ما فيها ، وقد قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (آل عمران : ١٤١ ــ ١٤٢) .

وقد روى البخارى فى صحيحه وغيره أن أبا سفيان وكان يومئذ مشركًا أبى أن يقال فيه : كاذب ، وحدث هرقل عن رسول الله ﷺ بالصدق حتى لا يذاع بين الناس أنه كاذب ، فقد أعلن الكفر لكنه كان صادقًا ..

ويبدو أنها ذرية بعضها من بعض ، فقد قالت زوجته هند للنبى ﷺ فى بيعة النساء : « أوتزنى الحرة يا رسول الله ؟! » وهذا دليل على أن صفات النبل قد تكون فى الكافر ، والإسلام لا ينكرها ، ويجب أن تكون فى المؤمن من باب أولى ، فهو ساعة يسلم على نبل الشمائل يسلم على خير كما قال النبى ﷺ لأحدهم ذكر له من خير ما فعل فى الجاهلية ، قال له : « أسلمت على خير » ..

وساعة يسلم وليس فيه هذه الشمائل يسلم ليكتسبها ، وتؤثر فيه ، فإذا به يشعر بحلاوة الإيمان الذى غيره من كاذب مذموم إلى صادق ممدوح ..

وكذلك من صدق هداه الله بسرعة إلى الصواب ، ألا ترى إلى قول الصديق رضي الله عنه حين سئل فى طريق الهجرة عن النبى ﷺ ؛ فقال : هاد يدلنى على الطريق ، وهو بالفعل هاد يدله والناس جميعًا على الطريق المستقيم ، وإن فهم منها السائل أنه دليل طريق مادى يسير فيه البعير والنفير ..

ومن أجمل ما يروى فى أحداث يوم أحد أن عبد الله بن جحش التقى وسعد بن أبى وقاص ــ رضى الله عنهما ــ فاقترح عبد الله على سعد أن يدعو دعوة ويقول سعد : آمين ، وأن يدعو سعد دعوة ويقول فيها : آمين ، ثم قال له : ابدأ يا سعد ، فقال سعد : اللهم لقنى اليوم فارسًا شديدًا بأسه أقتله وآخذ سلبه ، فقال عبد الله : آمين ، ثم

دعا فقال : اللهم لقنى اليوم فارسًا شديدًا بأسه يقتلنى ويجدع أنفى وأذنى ؛ حتى ألقاك فتسألنى :

فيمَ جدعت يا عبد الله ؟

فأقول : فيك يا رب وفى رسولك ؛ فتقول لى : صدقت يا عبد الله ، ولم يقل سعد : آمين ؛ فصاح فيه عبد الله وقال : قل آمين كما اتفقنا ؛ فقالها ، وقد كان لكلٍّ ما أراد .

فهذا رجل اشتهى أن يسمع شهادة الله ــ عز وجل ــ فيه بأنه صادق ، وفى سبيلها لقى الله شهيدًا صادقًا ..

وقد شاع الكذب بين الناس فى القول والعمل ، وتعللوا لذلك بعلل مختلفة ، وسمعنا من قواميس الإفك الكثير من هذه العلل التى يمكن أن تكون فى الضرورة والمجاملة والهروب من مواضع الجهد ، وغير ذلك ..

فلدينا من الشهادات المرضية الكثير التى تثبت أن حاملها مريض وهو صحيح ، لتشفع له فى مدرسته أو جامعته أو وظيفته بأنه ذو عذر ، ولا عذر له ، فلو صدق لاجتهد ولما تغيب ، ولو كان لصدق ونال ما ينال كما صدق الثلاثة الذين أنزل الله توبتهم من عليا سمائه ، وتاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ..

وكذلك شـــهادة الزور وهى عيـــن الكذب ، يتعلل بعضهم بأنه يشهدها عونًا لضعيف ، وجبرًا لخاطر كسير يواجه العتاة المعتدين ،

وهو ليس أرأف من الذى خلقه ولا أرحم به منه ، لما رواه البخارى فى صحيحه بأن الله ــ تعالى ــ أرحم بعباده من المرأة على ولدها ..

ومن ذلك ما يأتى به المسافر من شهادات مزورة تثبت له خبرة يتطلبها السفر ، قائلاً : إنى ذو كفاءة وما هذه الشهادة إلا حبر على ورق ، وأنا مضطر للسفر ..

وجميع ذلك وغيره لا يشفع للكذب ، إنما يشفع له أن يصلح بين متخاصمين فينمى خيرًا ، أو يقول خيرًا ، كما جاء فى الحديث الشريف ..

وغير ذلك من المواضع المعدودة التى لا تتجاوز الثلاثة ، وما عداها على المسلم الحريص على سلامة قلبه أن يكون صادقًا ، والله مع الصادقين ، وكفى بمعيته تعالى نصرة وتأييدًا وخيرًا لمن أراد ..

٦ ــ الكبر ..

والكبر آفة الآفات ، وآية الآيات الدالة على غش القلوب ، والقلوب موضعه ، ومن ثم يتجلى أثره فى الجوارح التى تبطش بدون حق ، وتتعدى على الناس ظلمًا وعدوانًا ، فقد روى مسلم وأحمد وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر ، فقال بعض الصحابة : يا رسول الله ، إن الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسنًا ،

ونعله حسنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » ..

أى أن المتكبر ليس هذا الذى يعنى بمظهره من اختيار الثوب الجيد الحسن ، والنعل الحسن ؛ فهذا من الجمال الذى يحبه الله ــ تعالى ــ ، والله ــ عز وجل ــ يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، كما جاء فى الحديث الصحيح ..

إنما الكبر كما ذكرت فى قلب المرء الذى يجد فى نفسه أنه أعظم من الناس ، وأنه فوقهم كأنه من أب غير آدم الذى من تراب ، ومن أمٍّ غير حواء التى خلقها الله ــ تعالى ــ من نفس آدم ..

إنه ذلك الذى يتكبر على القوانين فضلاً عن تكبره على أصول دينه ، فهو يرى أن له شرعًا غير شرع الناس ، وأن له قانونًا ينبع من ذاته وهواه ..

إنه ذلك الذى يتعدى دون وجه للتعدى ، ويظلم الناس لا لأنهم ظلموه ، ولكن لأنه يرى أنه فوقهم ، ولابد أن يكون ظالمًا لهم ، بل إن منهم من يعد الظلم نوع تفضل منه عليهم ؛ فهو يرى أنهم يستحقون قطع الرقاب ، وأن حياتهم حرام ، هو فقط يرى أن الحلال أن يعيش ، وأن يخلى له الطريق ، وقد روى البخارى فى صحيحه قول النبى ﷺ : « مطل الغنى ظلم » ، وكثير من الأغنياء مطل بسبب

الكبر ، لا بسبب أنهم غير قادرين على سداد ما عليهم من دين قد يكون لعامل فى مصانعهم أو مؤسساتهم ، يقولون له : من أنت حتى تطالبنا ؟

وهل تعد ما علينا لك مالاً ؟

إننا نمسح بمثله أحذيتنا ، ونعطيه مثلك صدقة ..

ويسخر منه ، ويستهزئ به ، ويماطله حتى يجف ريقه ..

وقد حال التكبر بين أناس وبين الإيمان ، فازدرى المشركون المؤمنين ، كما جاء فى قصة نوح عليه السلام ، قالوا : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ (هود : ٢٧) .

وحال التكبر دون تحصيل علم نافع ، ظن المتكبرون أنهم حين يجلسون فى طلبه يجالسون من دونهم ، وهم يرون أنفسهم كما قلت فوق الناس جميعًا ..

ألا ترى إلى ما قاله المشركون لرسول الله ﷺ حين سألوه أن يجعل لهم يومًا ، ولغيرهم من أمثال بلال وصهيب وعمار وخباب ساداتنا يومًا ، وقالوا : إن رائحتهم تؤذينا ، فأنزل الله مثال قوله من سورة الكهف : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (الكهف : ٢٨) .

وكان أبو المتكبرين إبليس ، الذى أبى واستكبر ، وكان من الكاذبين ، أى أبى أن يسجد لآدم ، قائلا : ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (الأعراف : ١٢) .

وحين أخرجه الله ــ عز وجل ــ من الجنة قال له : ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الأعراف : ١٣) ومن ثم كانت الجنة للمتواضعين ، وكانت النار للمتكبرين : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الزمر : ٦٠) .

والجنة لا يدخلها إلا من جاء ربه بقلب سليم ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (الشعراء : ٨٨ ــ ٨٩) .

أى سليم من الشرك ، فهو قلب مؤمن وسليم من غش القلوب والدخل الذى يعتريها نتيجة أوهام لا أصل لها ولا حقيقة ..

فكل الناس لآدم ، وآدم من تراب ، وقد قال ربنا ــ عز وجل ــ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات : ١٣) .

والتقوى محلها القلب ، إذا استقرت فيه استقر فيه التواضع لا الكبر، وقد كان رسول الله ﷺ مثالا فى التواضع ، كان يزور أصحابه ، كبيرهم وصغيرهم ، ويواكلهم ، ويجالسهم ، ويحدثهم ، ويستمع إليهم ، ويشاورهم ، ويأخذ بالراجح من آرائهم ، وفى حديث أنس بن مالك رضي الله عنه يقول النبى ﷺ : « إن الله أوحى إلى أن تواضعوا » .

ومن رقيق ما يروى فى ذلك أن أحد المتكبرين طاف حول الكعبة المشرفة ومعه خدمه وحشمه يمنعون الناس حتى يطوف وحده ، فمر عام ورآه رجل يجلس على جسر بغداد يمد يده يسأل الناس ، أفقره الله من بعد غنى ، وأذله من بعد عزة ؛ فعرفه الرجل ، وقال له : ألم أرك عام أول ، وأنت تطوف بالبيت ومعك خدمك وحشمك يمنعون الناس منك ؟! فقال : نعم ، لقد تكبرت فى موضع يتواضع فيه الناس ، فأذلنى الله فى موضع يتعالى فيه الناس ، أى فوق الجسر ..

٧ ــ شهادة الزور ..

وشهادة الزور من المنصوص عليها فى غش القلوب ، حيث إن عباد الله ــ تعالى ــ عباد الرحمن لا يشهدون الزور ، قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (الفرقان : ٧٢) .

وقد نهى النبى ﷺ عنها ، وكان مضطجعًا فجلس ، وانفعل ، واحمر وجهه ، حتى قال الصحابة : وددنا لو أنه سكت ، إشفاقًا منهم عليه ﷺ ورحمة به ..

ألا وشهادة الزور ، ألا وشهادة الزور فهى شديدة ، وهى شهادة باطل ، تتمثل فى الكذب فى الشهادة ، وقد سبق الحديث عن الكذب ، وتتمثل فى عدم الرؤية والعلم أصلاً ، كهؤلاء الذين اتخذوها حرفة ، وقعدوا بباب المحكمة يستأجرهم الناس ؛ لأنهم يحملون بطاقة ، ويملون

عليهم ما يريدون ، ويقفون أمام القاضى ، وبالله ــ عز وجل ــ يحلفون ويشهدون ، والله يعلم إنهم لكاذبون ..

ويأكلون بها مالاً حرامًا بلا شك ، ويطعمون منه أولادهم وأهليهم

وقد يتصدقون منه ويحجون ويعتمرون والله طيب لا يقبل إلا طيبًا ، مثل هؤلاء يربون أبدانًا للنار ، ويلبون حين يلبون ، والسماء ترد على الواحد منهم : لا لبيك ولا سعديك ..

فحج غير مقبول ، وسعى غير مشكور ، وذنب غير مغفور ..

٨ ــ كتمان الشهادة ..

ومن غش القلوب كتمان الشهادة ، وقد نص الله ــ تعالى ــ عليها فى خواتيم سورة البقرة حيث قال عز من قائل : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ (البقرة : ٢٨٣) .

وهل تظن أن من كان آثما قلبه ذو قلب سليم ..

لا شك أنه ذو قلب فيه غش ، لأنه قلب آثر السلامة حسبما يرى ، فكتم الشهادة ، أو كتم بعضها ، ولم يأتِ بها على وجهها ..

وقد روى ابن عبد البر أن مصعب بن الزبير ائتمن رجلاً أمينًا اسمه عبد الرحمن ، وأودع عنده مالاً عظيمًا ، بلغ عشرين ألف دينار ، وضاع المال من عند عبد الرحمن ؛ فاتهم فيه جارية كانت عنده ، وقال

لها : أنت سرقته ؛ فقالت : ما سرقته ؛ فضربها ضربًا شديدًا ، حتى اعترفت ، فخرج وجاء بالرجال إليها يشهدون ؛ فشهدوا ورفع أمرها إلى الأمير ، الذى استمع إلى الشهود ، كلهم قالوا :

نعم شهدنا بأنها قالت : سرقتها ..

إلاَّ محمد بن قاسم رضي الله عنه فقد قال : نعم ، شهدت بأنها قالت : سرقت ، وعليها أثر الضرب ..

فاستدعى الأمير الشهود من جديد وسألهم :

هل رأيتم عليها أثر الضرب ؟

فقالوا : نعم ..

فقال : ولم لم تقولوا ذلك ، فوالله لولا شهادة محمد لغرمتها إياه ، أى ذلك المبلغ الكبير ..

فالشهادة على وجهها تقتضى الحرص الكامل على الإتيان بكل شىء ، وإخفاء بعض الشهادة معيب شرعًا ، وتعوده من غش القلوب غير الواعية ، وكتمانها بالكلية خشية الضرر من غش القلوب يقينًا ..

٩ ــ عدم الخشوع ..

كلما تذكرت قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ ﴾ (المؤمنون : ١ ــ ٢) .

تأملت فى هؤلاء الذين ما عرفوا فى الصلاة خشوعًا ، وما عرفوه فى غيرها ..

روى ابن أبى شيبة رحمه الله فى مصنفه حديث رقم (٦٧٨٧) قال : رأى ابن المسيب رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة ، فقال : إنى لأرى هذا لو خشع قلبه خشعت جوارحه ..

وقد روى ذلك حديثًا ، لكنه معلول ، فيه عنعنة الوليد بن مسلم ، كان كثير التدليس والإعضال بين ثور بن يزيد وحذيفة ..

والخشوع فى الصـــلاة معنـــاه عدم الحركة فيها بدليل قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ (فصلت : ٣٩) .

فالخشوع نقيض الاهتزاز ، ومن لم يعرف الخشوع فى الصلاة كان فى قلبه غش ، وكذلك من تراه من الناس خصوصًا الشباب ، ترى الواحد من هؤلاء كأن فى بدنه رعاشة ، لا يعرف السكون حين يتحدث ، أو يتكلم ، وهذا إما مريض يجب علاجه ، وإما فى قلبه غش يجب أن يتوب منه ..

وقد ثبت أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا يجلسون مستمعين إليه وكأن على رءوسهم الطير من سكون وثبات واطمئنان ..

بخلاف ما نراه فى مساجدنا ، وفى قاعات الدروس والمحاضرات ، حيث ترى اهتزازًا فى الرءوس وتسمع صيحات ونداءات : الله أكبر ، على النحو الذى تسمعه من مشجعى القارئين المشهورين ، والمعروفين بالبطانة ، فهم يقولون : « الله يا مولانا .. .. الله يا سيدنا » ..

وإن كان القارئ يقرأ قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الجن : ١٥) !!

والدليل على غش قلوب هؤلاء أنهم لا يسمعون ، وعليه فإنهم لا يعرفون الفرق بين المعانى ، وكذلك الشباب الذى يتراقص ، ويحرك كل عضو فيه ، وهو يحدث مثل أبيه أو أمه ..

وقد ذكر التاريخ رجالات عرفوا بالثبات والحكمة ، ومن الحكمة ألا يهتز المرء بسهولة ، فهذا رجل جاءه نبأ قتل ابن أخيه ولده ؛ فقال لولده الآخر :

وارِ سوأة أخيك ، وادفع الدية عن أخيك لأمك ؛ فإنما هى أجنبية .

وإن كان فى ذلك مبالغة بلا شك ، وقد جاء فى السير أن حمنة بنت جحش ــ رضى الله عنها ــ نعى إليها خالها حمزة بن عبد المطلب ﷺ فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ..

ونعى إليها أخوها عبد الله بن جحش ﷺ فقالت :

إنا لله وإنا إليه راجعون .

فلما نعى إليها زوجها مصعب بن عمير ﷺ ، ولولت واضطربت ، وصاحت ، فقال رسول الله ﷺ :

إن للزوج عند زوجته لمكانًا !!

لما رأى من صبرها واحتسابها حين نعى إليها خالها أسد الله وسيد الشهداء ، وحين نعى إليها المجدع فى الله أخوها ، واضطرابها وصراخها حين نعى إليها زوجها ..

وهؤلاء يضطربون لأدنى ملابسة ، وقد قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (الأنفال : ٤٥) .

وهل تظن بأن هؤلاء المرتعشين المهتزين يثبتون عند ملاقاة فئة ، وهم الذين لا يثبتون عند ملاقاة فأرة !

ادخل أية قاعة من قاعات المحاضرات فى مراحل الدراسة ، حتى فى الجامعة ، لا ترى طلابًا كأن على رءوسهم الطير إلا من رحم ربك من الجادين المهتمين بطلب العلم ، وهؤلاء يؤذيهم هذا السلوك المريض ؛ فإنه يشوش عليهم ، ولا يهيئ لهم فرصة الاستماع ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (ق : ٣٧) .

مأساة يجب أن نعالجها ، وعلى المحاضر أو الخطيب ، أو القارئ دور كبير فى هذا ؛ فإن معظم هؤلاء يلقون المحاضرة ، أو الخطبة بطريقة مستفزة وفى الخطب بالذات تجد رقائق بلا سند تثير الناس ، وتجعلهم يقفزون من أماكنهم ، ويصلون إلى سقف المسجد طربًا ، وظنًا بأن الحياة تتبدل سننها بعبارة ، أو دعاء ، وهذا يكشف لك سر ما كان عليه صحابة النبى ﷺ ورضى عنهم كيف كانوا يستمعون إليه وكأن على رءوسهم الطير ؛ لأنه يقول الفصل ، لا السرد ، والحق لا الباطل ، وهو من هو فصاحة وبيانًا ، وطيبًا ، وهدوءًا ، ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾ (القيامة : ١٦) .

وكانت خطبه قصيرة ، وكان يتخول الناس بالموعظة خشية السآمة عليهم ، وما كان فى كل جملة يقول :

وحـــدوا الله .

وصلوا على النبى .

وذلك كما يفعل كثير من الوعاظ فى زماننا ..

وما كان يضع يده على صدره ، ويشهق ويقول حبيبى يا رب ..

وإنما علم الناس أن الحب عمل واتباع هدى ، وليس شهيقًا وزفيرًا من نار ..

وقد سرى هذا الفساد الدال على غش القلوب مع الأسف من الشباب إلى الشواب (أى البنات) ..

فالبنت التى كانت إذا مشت مشت كما قال الشاعر :

كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحاب لا ريث ولا عجل

صارت تنط نطا ، وتقفز قفزًا ، وتكاد ترقص فى الشارع فضلاً عن كونها كاسية عارية مثيرة متبرجة ، وقد نزع منها الحياء ، فهل تزعم أن مثلها ذات قلب سليم ، أم أنها صارت ذات قلب به غش ..

وهل تظن بأنها إذا تزوجت سوف تلد جيلاً يثبت عند الشدة ، ويقف كالطود ، ويرسخ كالجبال ، ويكون إنسانًا يقدر معنى الحركة ، ومتى تكون ..

وقد جاء فى الذكر الحكيم قول الله ــ تعالى ــ فى خاتمة سورة الروم : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الـــروم : ٦٠) .

والاستخفاف أن يكون المرء خفيفًا ، لا من حيث الحركة الواجبة التى قد تدعو الضرورة إلى سرعة حدوثها ، وإنما معناه أن يكون خفيفًا يتحرك لأى ناعق ، يوضح ذلك سبب نزولها أن اليهود اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يترك المدينة ، ويستقر فى الشام أرض الأنبياء ؛ فثبته الله ــ تعالى ــ ، ونزلت ..

والكلام فى الاستخفاف يحتاج إلى عمل مستقل فقد صار الناس اليوم يستخفون إذا دعوا إلى أى شيء ، وهذا إن لم يكن فى الحق ، كان من غش القلوب ، والقلب كما قالت الصوفية بمثابة الملك ، والجوارح بمثابة الجنود ، فمتى كان سليمًا كانت الجوارح كذلك ثابتة ، والثبات من آيات السلامة ، وإن كان فيها غش رأيت الجوارح على النحو الذى وصفت لك ..

١٠ ــ سوء الظن بالله ..

وسوء الظن بالله ــ عز وجل ــ من أكبر الأدلة الدامغة على غش القلوب ، وقد قال الله ــ عز وجل ــ : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ ﴾ (الأحزاب : ١٠) .

والظن هنا بمعنى الاعتقاد ، لا بمعنى الشك ، وقد قال المفسرون : إن معنى « وتظنون بالله الظنونا » أن المؤمنين يظنون بالله الظن الحسن ، وأن المنافقين يظنون بالله ظن السوء ..

وقد قال الله ــ تعالى ــ فيهم : ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٢ ﴾ (الفتح : ١٢) .

حين زعموا أنه لن يرجع الرسول ومن معه ، وأنهم هالكون !

كيف وقد قال الله ــ عز وجل ــ : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١ ﴾ (غافر : ٥١) .

وقـال عز مـن قـائل : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧ ﴾ (الروم : ٤٧) .

فمن كان ذا قلب سليم أحسن الظن بالله ــ عز وجل ــ ؛ فهو الولى ، وهو على كل شيء قدير ، ووعده حق ، وقوله صدق ، بيده ملكوت كل شيء ..

وأمره إذا أراد شيئًا أن يقول له : كن فيكون ، يرزق من يشاء بغير حساب ، وقد قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨ ﴾ (الرعد : ٢٨) .

أى بذكر الله ــ تعالى ــ تطمئن القلوب ؛ فإذا بها تعمل ؛ لأن الله ــ تعالى ــ لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وقـد قال وقوله الحق : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ (الزلزلة : ٧ ــ ٨) .

وترى من كان ذا قلب سليم يمضى وهو مستبشر غير يائس ، وكيف ييأس وهو ينطلق فى نور الله ــ عز وجل ــ ، ويستبشر بوعده ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٢٥ ﴾ (التوبة : ١٢٤ ــ ١٢٥) .

ومن حسن الظن بالله ــ تعالى ــ الدال على سلامة القلب اليقين بهذا الوعد ، وكذا اليقين بالوعيد بخلاف المتردد ، الذى يتردد فى ريبه ، كالمنافقيـن « فهـم فى ريبهـم يترددون » ، قـال الله ــ تعالى ــ : ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (التوبة : ٤٤ ــ ٤٥) .

١١ ــ سوء الظن بالناس ..

ومن غش القلوب أن ترى المرء سيئ الظن بالله وهو من أكبر الكبائر بعـد الشرك بالله ، وكذلك أن تراه سيئ الظـن بالناس ، وقاعدة الإسلام التى يلتزم بها أصحاب القلوب السليمة أن حسن الظن بالناس هو الأصل والأساس حتى يثبت العكس ، وليس العكس الذى عليه كثير من الناس ، ترى الواحد منهم يقول على وجه العموم والتعميم :

- لا أحد عنده أمانة .
- لا أحد عنده دين .
- لا أحد عنده وفاء .
- لم يعد حب فى الله فى هذا الزمان .

- لم تعد بكر بين البنات هذه الأيام .
- ما عاد الأخ أخًا ، ولا الأخت أختًا ، ولا ولا ، وجميع ذلك شائع معروف .

وهو يدل على خراب فى القلوب بسبب الغش ، فقد دعا الإسلام الناس إلى أن يحسن بعضهم الظن ببعض ، وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (الحجرات : ١٢) .

وقد بين للناس الضمانات الشرعية ، التى سوف يأتى الحديث عنها فى هذا الكتاب ، والذى يستوى فى الالتزام بها سليم القلب وغاشه ، فلا يفزع منها سليم القلب ؛ لأنه راض بشريعة ربه ، ككتابة الدين مثلاً .

وإنما يثور عندها ، ويغضب من كان فى قلبـه غش ، كالذى قال الله ــ تعالى ــ فيه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ (البقرة : ٢٠٦) .

ويبدو أن من كان فى قلبه غش زعم أن جميع القلوب كذلك ، هذا إن أقر بأن فى قلبه غشًا ، ولم يزعم أن قلبه إمام القلوب النقية ، وأسلم قلب فى الوجود ، زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسنًا ..

ويترتب على سوء الظن بالناس حب إشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا ــ مع الأسف ــ مع الوعيد الشديد ، والنهى الأكيد ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (النور : ١٩) .

١٢ ــ عدم القناعة ..

ومن علامات غش القلوب أن تجد المرء قلبه على غير قناعة ، فهو غير راضٍ بما رزقه الله ، وقد قال الله ــ تعالى ــ فى آية التوبة مبينًا صـــفات المنافقين : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (التوبة : ٥٩) .

أى أنهم كمـــا جـــاء فى هذا السياق يسخطون إن لم يعطوا من الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ، ولا شك أن هذا الرضا رضا مؤقت ؛ لأنهم إن أعطوا منها اليوم طمعوا فى العطاء منها غدًا ؛ لأنهم لا يشبعون ، وهذا النهم الذى لا يشبع أبدًا لا شك أن فى قلبه غشًّا فلو كان ذا قلب سليم لشبع ورضى ..

جاء نفر إلى النبى ﷺ وسألوه فقال لهم : أبشروا ، فجلسوا ثم سألوه بعد قليل ، فقال لهم : أبشروا ؛ فقالوا : أكثرت علينا من أبشروا ، فسكت ﷺ حتى جاءه نفر من الأنصار يسألونه كذلك ، فقال لهم : إن هؤلاء سألونى فقلت لهم : أبشروا فلم يرضوا بالبشرى ، فقال الأنصار : رضينا يا رسول الله ..

ولا شك أن الإنسان صريع حاجته ، وقد خلق من عجل ، وجبل على الطمع ولو كان له واد من ذهب لتمنى ثانيًا ، ولو كان له واديان منه لتمنى ثالثًا ، كما جاء فى الحديث ، وفيه يقول ﷺ : « ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » ..

والتعبير بابن آدم يختلف عن التعبير بالمؤمن أو المسلم ، يعرف هذا من له طول عهد بالأساليب القرآنية والنبوية ، فإن ابن آدم إن جبل على الطمع فالإيمان يزرع فيه القناعة ، وهذا من أثر الإيمان فيه ، ألا ترى إلى قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (المعارج : ١٩ــ ٢٢) .

فاستثنى ربنا تعالى المصلين من بنى جنسهم الذين يجزعون عند الشر ، ويمنعون عند الخير ، فصاروا كأنهم خلق مختلف وهم ليسوا كذلك ، وإنما اختلفت الصفات لأن الإيمان حل محل الكفر فضاعت صفات الكفر وتجلت صفات الإيمان ..

وكذلك الحال فى الشره والقناعة ، ألا ترى إلى ذلـــك الرجـــل الذى ضافه رسول الله ﷺ فلم يشبعه ــ وهو كافر ــ حليب سبع شياه ، فلما غدا مؤمنًا كفاه حليب شاة واحدة ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : « المؤمن يأكـــل فى معى واحـــد والكافر يأكل فى سبعة أمعـــاء » ..

وقد علق ابن عبد البر على هذا الموقف بأنه حالة خاصة ، أى فى ذلك الرجل لا فى عمـــوم الناس ، فمن الكفار من هو قليل الأكل ، ومن المؤمنين من هو كثيره ، فلا يحكم على كثير الأكل بالكفر ، ولا على قليله بالإيمان وإنما يحكم على ذلك كله آيات الإيمان وآيات الكفر ، لكنا نستأنس به فى سياق الحديث عن الرضا الذى هو من آيات القلب السليم ، فالمؤمن يرضى بالقليل ويقنع به بشرط أن يبذل كل طاقته فى سبيل تحصيل الكثير الذى يؤدى رسالته نفقة على نفسه ، ومن تجب عليه نفقته ، ويؤدى به رسالة المال فى الإسلام من إطعام المساكين ، وسد حاجة المحتاجين ، وتعمير الأرض ؛ لأن كثيرًا من الناس يتعلق بالقناعة ؛ فلا يعمل ، أو يعمل القليل وفى وسعه أن يعمل الكثير قائلاً : من رضى بقليله عاش ، ونحو ذلك من الألفاظ التى يراها مسوغًا لكسله ، ومبرئة إياه ، حتى ينام فلا يعمل ، ويجمد فلا ينشط ، وتتوالى عليه الأيام والليالى وهو كما هو ، يتقدم الناس ويتأخر ، فإن نازعه أحد أو خاصمه تمسح بمثل هذه العبارات التى ظاهرها حق وباطنها باطل؛ فقال : إن القناعة كنز لا يفنى ، وإن الرضا من شيم المؤمنين ، والطمع يذهب بما جمع ، ومن رضى بقليله عاش ، وأنا ذو قلب قنوع ، أو نحا منحى الصوفية الذين يرون أنهم لن يرتقوا إلى مستوى معين ، أو إلى مقام ، كمقام الكشف إلا إذا طلقوا

الدنيا طلاقًا بائنًا ، ولبسوا رداء الزهد وهو نفيس لمن عرفه على وجهه ..

والدنيا لا تُطلّق إلا إذا زُوِّجت أولا ، والذين طلقوها ما طلقوها من بعد زواج أى لم يدخلوا بها وعلى هذا فطلاقهم بإجماع الفقهاء لا يقع ، فهو من لغو الكلام وما أكثر اللغو فى حياة المسلمين ، وما أقل الجد الذى كان ينبغى أن يكون حاديهم نحو المعالى ودليلهم إلى عظيم المبانى ، وما خلق الله الدنيا إلا لنعمرها كما قال ــ تعالى ــ فى آية هود : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود : ٦١) .

فعلى المسلم ذى القلب السليم أن ينهض وأن يبذل أقصى طاقته فى العمل والكسب ، ليجمع الكثير؛ ويؤدى زكاته ، ورسالة الله فيه ، فإن حصل عليه وعمل ذلك فقـــد فـــاز ، وإن بذل الجهد ولم يُحصِّل إلا القليل رضى ، وهذا هو الرضا المعتبر شرعًا ، كما قال من فى قوله شىء من الحكمة : ليس علينا إلا أن نسعى وعلى الله تحقيق الأمل ..

مع أن الساعى بجد لا يضيعه الله أبدا ولكن شيئًا ما فى طيات الغيب ظاهره قاس ولكن باطنه فيه الرحمة ، ألا ترى إلى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الشورى : ٢٧) .

ومما يُروى من قصص العرب أن رجلاً استيقظ من منامه فوجد حماره وكلبه قد ماتا ؛ فساءه ذلك ؛ إذ إنهما ثروة ولا غنى له عنهما لكنه علم أن سطوًا كان فى تلك الليلة ، فلو كان الحمار والكلب موجودَين لأتى المعتدون إليه على نباح الكلب ونهيق الحمار؛ فحمد الله الذى يعلم ولا نعلم وهو علام الغيوب ..

وفى الذكر الحكيم أصدق من هذا وأنبل حيث قتل العبد الصالح الغلام ، وقال الله ــ تعالى ــ : ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ (الكهف : ٨٠ ــ ٨١) .

وكذلك الحال فى أصحاب السفينة التى خرقها وما كان الخرق الذى هو عيب فى ظاهره إلا طوق نجاة لها؛ فقد كان وراءها ملك يأخذ كل سفينة غصبًا ؛ أى يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا ، وهذا الخرق اليسير لا يؤدِّى إلى إغراقها فى الوقت الذى يؤدى إلى سلامتها ، وكذلك الحال فى الرزق الذى قد يأتى قليلاً لكنه يكفى ، وينجى من مهالك لا يعلمها إلا الله لو أنه زاد ، فترى المؤمن يعلم ذلك ويرضى به ، وترى الذى فى قلبه غش لا يعلم ذلك إلا حفظًا لكنه ينكره سلوكًا واقتناعًا ، فهو وإن بدا راضيًا بلسانه لكنه ساخط بقلبه وجنانه ، فلو أنك نظرت إلى وجهه اكتشفت أنه مضطرب الملامح ، لا تبدو عليه آيات الرضا فى إشراقة تسر من ينظر إليه ، وتبدى له الذى يضمره القلب

من رضا ، وقد قال الله ــ تعالى ــ فى الفقراء الذين لا يستطيعون ضربًا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا ..

وسيماهم ليست اضطرابًا فى وجــه ولا حركة بغيضــة فى أعضاء ولا شهيقًا ولا زفيرا بغيضين فى فم يُسوّدان الأفق الوضىء ، وإنما فى ضعف قوى ، ومظهر متواضع من أدمن النظر فيه وجده لا يتغير ، لكنهم يبدون القوة قدر طاقتهم ، ويكلل الرضا وجوههم بالندى رغم الجدب الذى يعيشون فيه ، وإن حدثوك أشعروك بأنهم فى نعيم مقيم وليسوا فى عذاب وجحيم ، وما ذلك إلا لأنهم برغم فقرهم أولو قلوب سليمة لا غش فيها ، ذلك الغش الذى قد تجده فى أصحاب ملايين يريدونها مليارات ، وأصحاب مليارات يريدونها مضاعفة إلى حد أسماء لما يُصطلح عليها بعد ، وهؤلاء هم الذين قال رسول الله ﷺ فيهم : « ولا يملأ عينَ ابن آدم إلا الترابُ » ..

والتعبير بابن آدم غير التعبير بالمؤمن كما سبق أن بيّنته ..

والقناعة التى هى كنز لا يفنى إحساس يملأ القلب بالقوة ، ويدفع بصاحبه إلى أن يتمسك بمبادئه ؛ فهو إنسان لا يُشترى بالمال ، وهذا من ثمرة القناعة ؛ لأن ذا القلب السليم الذى من آيات سلامته القناعة لا فرق عنده بين أن يعود بمائة أو أن يعود بألف متى أخلص العمل

وأدى ما عليه ، فإن كان فى قلبه غش وعلم الناس فيه ذلك استطاعوا أن يشتروه فهو يشهد الزور من أجل الألف ، وقد يقتل من أجل المليون ، ويفعل المنكرات من أجل المليارات ، والحوارات تكشف عن ذلك حين يمتنع من فى قلبه غش عن أداء شىء من ذلك لمن يسأله أداءه ، فتراه يمتنع لا لأنه سُئلَ أن يفعل منكرًا ، ومن سأله يعلم ذلك فيه ؛ فيزيده قليلاً ، ثم يراه مترددًا ؛ فيزيده أكثر ، لكنه على يقين أنه سوف يستجيب عند رقم ما وإنما المسألة مسألة مساومة ، وقد يكون الذى يسأله بلا شك مثله ؛ فهو لا يسأل فعل المنكرات إلا من أجل منكر قد يتمثل فى طبع فاسد فيه ، وهذا أيضًا من غش القلوب ، وقد يكون كذلك طامعًا فى المزيد كما يطمع فيه صاحبه ، إذ إنه يدفع له الألف ليجنى من وراء خبثه ألفين ، وفى ذلك من التنافس البغيض ما ينكره الشرع ويشمئز منه الطبع السليم ..

وذو القناعة محبوب بين الناس ؛ لأن الناس يحبون الزهد فى الناس ، ومن قديم نصح الجاهلى الحكيم ؛ فقال : إذا أردت أن يحبك الناس فازهد فيما فى أيديهم ، وإذا أردت أن يحبك كبارهم فاعطف على صغارهم ؛ وذلك لأن فى الناس شُحًا ، وقد قال الله ــ تعالى ــ فى آية الإسراء : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ (الإسراء : ١٠٠) .

قد تجد بعض الناس يسألون من يكلفونه بعمل عما يريد جزاء عليه ومستحقًا له ، فإن سأل شيئًا يسيرًا زادوه من تلقاء أنفسهم ؛ لأنهم يحبون هذا ولا يحبون من يسألهم الكثير الذى فيه إرهاق لهم ، وبعضهم يرى أن هذا العمل المكلف به لا يستحق هذا الأجر الكبير وإن كان فعلاً يستحقه ، وهذا من رزق الله الذى يصح أن نقول فيه إنه من حيث لا يحتسب ؛ لأنه احتسب القليل ولكن الله ــ تعالى ــ أعطاه الكثير ..

وهذا الرزق الكثير من الناس يسبب طمعهم وجشعهم ..

وقد روى البخارى فى صحيحه أن مالاً جاء رسول الله ﷺ فأعطاه عمر رضي الله عنه فقال عمــر : يا رسول الله ، أعطه من هو أفقر منى فقال ــ عليــه الصــلاة والســلام ــ : « يا عمــر ، إن هــذا المــال حلوة خضرة فإن جاءك مــن غيــر أن تسأله فخــذه وتموّله يبــارك لك فيه » وقد جاء فى رواية : « من غير سؤال أو إشراف نفس » ، وذكر ابن عبــد البــر للعلمــاء أقــوالاً تتعلــق بحــكم المــال الذى جــاء عن ســؤال أو إشراف نفس : أحــلال هــو أم حــرام ، قولان يعقبهما ثالث وهو التفصيل ؛ فإن المسألة تجوز عند الضرورة ..

١١ ــ الغلظـــة ..

والغلظة من غش القلوب ، وقد نسبها الله ــ تعالى ــ إليها ، فقال : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

تقول : هذا قلب فيه غش ..

فإن قيل لك : كيف عرفت ؟

فقل : لأنه غليظ غير لين ..

وشأن المؤمن أن يكون رقيقًا رفيقًا يشعر بمن حوله ، ويدرك ضعفه ، ويواسى جرحه ، ويألف ويؤلف ..

ولابد لغليظ القلب وغيره أن يتوب إلى الله عن هذا الغش ، كما يتوب السارق عن السرقة ، ويتوب الزانى عن الزنا ، وشارب الخمر عن شربها ..

ورب آفات هى فى حاجة إلى توبة أشد من حاجة الذنوب التقليدية المعروفة ، ومنها تلك الآفة التى تصيب القلوب ، ومع الأسف يظن غلاظ القلوب أنهم هم الذين فقهوا ..

وإذا سمعوا شيئًا من اللين ، واطلعوا على بعض الأبيات الشعرية قالوها بلغة معروفة « هيافة » ..

أى من لغو الحديث ، ولهوه ، وظنوا ذلك كلامًا فارغًا ..

أما الكلام الذى هو الكلام فأن تكون جافًا فى اختيار ألفاظه المؤلمة وعباراته الجارحة ؛ إذ يرون أنك كى تعيش رجلاً بين الناس لابد أن تكون مشكمًا من أمامك ، تصده وتقهره ، وتشتمه ، وتلفظه ، ساعتها يخافك ويهابك ، ويعمل لك ألف حساب ، ولا يهضمك حقك ، ولا يمنعك ما تريد ..

وقد يعبر بعضهم عن ذلك بالعين الحمراء ، أى لابد أن يرى الناس منه العين الحمراء ، واللفظـــة الصماء ، التى تمطر حجـــارة لا ترى ، وتحرق الدم فى عروق المخاطب ولا تبل منه صدى ..

وقد كان رسول الله ﷺ أرق الناس ، وألين الناس ألفاظا ، وأحسن الناس عِشرة ..

وجميع من وصفوه قالوا : « ليس بالجافى » ..

وحين اختار زيد بن حارثة رضي الله عنه البقاء معه على الرجوع مع أبيه وعمه إلى ديار قومه ، قال وهو صغير :

لقد وجدت فى هذا الرجل شيئًا وما أنا بالذى أفارقه ..

ولم يكن هذا الشىء مجرد عطاء مادى ــ وهو موجود ــ فرسول الله ﷺ أكرم الناس ، وأجود الناس ، ولكن هذا الشىء هو سر فيه ، لا يعبر عنه بكلام ، وإنما تعبر عنه لغة الوجدان التى لا يعرفها اللسان ، ولا يعبر عنها فصيح ببيان ، إنها الرأفة والرحمة واللين ، الذى ما وجد فى شىء إلا زانه ، وما فقد من شىء إلا شانه ..

إنه أنس المودة الذى يتجسد فى شعورك ، ورغبتك فى البقاء إلى جوار الرحيم ، الذى تلمس فيه آيات الرحمة إذا نظر إليك ، وتشعر معه بحنو الأهلية وإن لم يكن قريب دم منك ، وقد فصلت القول فى هذا فى كتاب (حياة على طبق الموت) ..

وقد بين ﷺ أن من أحب الناس إليه ، وأقربهم منه متزلاً يوم القيامة أحاسنهم أخلاقًا ، الموطئين أكنافًا ، الذين يألفون ويؤلفون ..

وهناك الكثير من الناس ليس فيه هذا ولا ذاك ؛ فهو لا يألف أحدًا ، ولا يألفه أحد ، بسبب غلظة قلبه التى تتجسد على جوارحه فى سلوكه الذى ينبئ عن تلك الغلظة ، فهو لا يعجبه شىء فى الناس ، ولا يجتهد فى صنع شىء يعجبهم ، وهذا إذا نظرت فى الكتاب العزيز وجدته ، حيث قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ (البقرة : ١٣) .

فأطلق لفظ الناس على الذين آمنوا ، وهو من الأنس ضد التوحش كما ذكر ابن منظور فى لسان العرب ..

فالإنسان هو الذى تأنس بالقرب منه صامتًا كان أو متكلمًا ، إن كان عنده خير أعطى ، وإن تكلم قال الطيب من القول ﴿ وَهُدُوٓا إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (الحج : ٢٤) .

وإلا سكت ، وفى سكوته خير ، يمنحك المودة من أول لقية ، وكأنك تعرفه من زمن طويل ..

بخلاف من تعاشره أعوامًا وكأنك ما عاشرته أيامًا ، وذلك لأنك كسائر الناس لا تعرف حقيقة الناس إلا بعد زمن طويل ، إن عرفت فالتوصل إلى معرفة غش البضائع والسلع قد يكون أمرًا يسيرًا بالنسبة إلى معرفة غش القلوب ، فقد تعرف أن السلعة مغشوشة بنظرة واحدة فيها إن كنت خبيرًا ، أو صحبت خبيرًا ينظر لك ..

لكن الناس يعرفون بالخداع ، ألا ترى إلى قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (البقرة : ٩ ــ ١٠) .

ولولا الوحى لما عرف رسول الله ﷺ من حقيقة المنافقين ما عرف ، ألا ترى إلى قوله تعالى فى واحد منهم :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ (البقرة : ٢٠٤ــ ٢٠٦) .

وحتى لا يموج الناس بعضهم فى بعض ، ويقتل بعضهم بعضًا جاء النظم الجليل بذكر الصفات دون ذكر الأشخاص ، ليعرف كل امرئ

نفسه فى ضوء تلك الصفات ، وقد قال النبى ﷺ فى صفات المنافقين : « فمن كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا » أى من كذب فى حديثه ، وأخلف فى وعده ، وغدر فى أمانته ، وفجر فى خصومته ، ومن كان فيه شىء منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ..

فهناك بلا شك أمل فى أن يدع المنافق ما فيه من خصال المنافقين ، وقد يتوب ذلك المنافق قبل أن يفتضح أمره ، وعندئذ يكون الله ــ تعالى ــ قد منَّ عليه بنعمة الستر ..

١٢ ــ القسوة ..

والقسوة من ثمرات الغلظة ، فبئس الأصل ، وبئس الفرع ، وبئست الشجرة وبئست الثمرة ..

وقد نسبت القسوة إلى القلوب كما نسبت الغلظة إليها ، ألا ترى إلى قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (البقر : ٧٤) .

وقد ثبت أن من المعهود عن سيد الوجود سيدنا رسول الله ﷺ أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا ..

وبعض الناس وهم أولئك الذين فى قلوبهم غش إذا خُير بين أمرين اختار الأعسر ، لا الأيسر ..

وتلك آية كاشفة عن غش فى قلبه ..

وصدق العوام من الناس ، حيث عبروا عن ذلك بقولهم : « فلان بلا قلب » ..

وسوف أذكر فى هذا الكتاب إن شاء الله أن القسوة قد تبدو من غش القلوب وليست منه ، إذا كانت اعتراضًا بين رحمتين ، فإن اللبيب يقسو أحيانًا على من يرحم ، لكنه إذا كان قاسيًا أبدًا كان فى قلبه غش ، وهذا هو الفرق بين الأصيل والعارض ..

فالقسوة المتأصلة عند بعض الناس تراها فى زمن الرخاء كما تراها فى زمان الشدة ، وتراها حين تدعو الدواعى جميعها إلى اليسر والتيسير ، كما تراها حين يدعو الداعى إليها ، وهى حين يدعو الداعى إليها من تأديب ونحوه تكون أشد وأعتى ..

ويتوهم كثير من الناس أن القسوة أمثل أسلوب فى التربية ، وبنوا على ذلك أمثالاً منها ..

« اكسر للبنت ضلعًا يطلع لـــها أربعة وعشرون » ..

وقد قال النبى ﷺ : « رفقًا بالقوارير » ..

وأنشد الشاعر :

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الإبل

وفى التراث اللغوى شاهد يقول :

فأوردها العراك ولم يزدها ولم يشفق على نغص الدخال

أى أورد الساقى الإبل مختلطة كبيرها مع صغيرها ؛ فظلم الكبير الصغير ، وكان العراك ، حيث لم يشفق على نغص الدخال ، أى على الإبل الصغيرة ..

وهذا يجعلنى أفكر فى أن القسوة قد تتأتى عن جهل ؛ فإن الخبير بسقى الإبل لا يخلط كبيرها بصغيرها ، أى لا يعرف (المعجنة) ، وإنما يعزل الضعيف عن القوى ، حتى لا يهلك وهو بذاك رفيق ..

بخلاف الجاهل الذى يرسلها متدافعة متعاركة ، يدفع بعضها بعضًا ، ويقسو كبيرها على صغيرها ..

ومن هنا تأتى أهمية العلم من تلك الزاوية التى ربما لم تقرأ عنها كثيرًا أو تسمع عنها

ومعنى ذلك أن العلم يحقق الشفقة ، لا القسوة ، والعلم يهدى إلى الإيمان ، والإيمان يدعو إلى الشفقة ..

وقد كان الراهب الذى أفتى من قتل تسعة وتسعين شخصًا قاسيًا ، حين أفتاه بألا توبة له ..

فلما أتم به المائة ، وقتله ، وذهب إلى عالم قال له العالم : لك توبة ونصح له بأن ينأى عن مكان السوء الذى يشجعه على القتل ، وأن ينتقل إلى مكان آخر ..

ومن الشفقة أن يفتيه ، وأن يعينه على ما يحقق له الخير له ، وقد كان ﷺ رفيقًا ، جاءه من ظاهر امرأته ؛ فذكر له الكفارة ، وقال :

عليك عتق رقبة ..

فقال وقد أشار إلى رقبته :

والذى بعثك بالحق لا أملك إلا هذه ..

قال : صم ستين يومًا ..

قال : وهل كان ما كان منى إلا بسبب الصوم ؟

فقال : أطعم ستين مسكينًا ..

قال : لا أجد ..

فقال له : انتظر ..

فانتظر ، حتى جاءه ﷺ بتمر ، فأعطاه إياه ، وقال له : أطعم به ستين مسكينًا ..

فقال : والذى بعثك بالحق ما بين لابتيها (المدينة) بيت أفقر من بيتى ..

فقال له ﷺ : أطعمه أهلك ..

فلما عاد إلى قومه الذين أبوا أن يصحبوه إلى النبى ﷺ لظنهم أنه قد يسمعه ما يكره ، فقال لهم :

لقد وجدت عند رسول الله ﷺ السعة وحسن الرأى ، ووجدت عندكم الضيق وسوء الرأى ..

فما أفتاه ﷺ وتركه ، وقال له إذ وصل معه إلى الإطعام :

وما عسى أن أفعل لك ، ذلك فى رقبتك ، وإنما أعانه على الكفارة ..

وكذلك حين جاءه جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يقول له :

أبى اليهودى إلا أن يأخذ دينه الآن ؛ فذهب معه ، وشفع عند اليهودى أن يُنظر جابرًا ، فأبى ؛ فقال عليه الصلاة والسلام :

انطلق يا جابر إلى نخلك ، وانطلق معه ، ومشى فى زرعه ، فبارك الله ، وقضى ما عليه ..

وقد دعا ﷺ الناس إلى مساعدة سلمان الفارسى حين اكتتب ، حتى يقضى ما عليه ويصير حرًّا ، وكان فى مقدمة من أعانه ، وزرع له بيده الشريفة ما زرع من الفسيل ..

وما أكثر النماذج المشرقة التى تبين أنه ﷺ لم يكن ليفتى من علياء ، ثم يلقى ما عنده ، ويتخلى ..

١٣ ــ الخيانة ..

فى الحديث الصحيح : « اللهم إنى أعوذ بك من الجوع ؛ فإنه بئس الضجيع ، ومن الخيانة فإنها بئس البطانة » ..

والبطانة لفظة مشعرة بالباطن ، أى بالقلب ، فبئس البطانة الخيانة ، تلك التى ينطوى عليها قلب فيه غش ، فيخون العهد ، والأمانة ، والكلمة ، والوطن ، والزوج ، والجار ، وقد قال الله ــ عز وجل ــ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنفال : ٢٧) .

جاء فى أسباب النزول للواحدى :

"قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ الآية (٢٧)

نزلت فى أبى لُبَابَة بن عَبـــد المُنْذِر الأنصارى ، وذلك أن رسول الله ﷺ ، حاصر يهـــود قُرَيْظَة إحـــدى وعشرين ليلة ، فسألوا رسول الله ﷺ ، الصُّلْحَ على ما صالح عليه إخوانهم من بنى النضير ، على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذْرِعَات وأرِيحا ، من أرض الشام .. فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن مُعاذ ، فأبوا وقالوا : أرسل إلينا أبا لُبَابَةَ ، وكان مناصحًا لهم لأن ماله وعياله وولده كانت

عندهم ، فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم ، فقالوا : يا أبا لبابة ، ما ترى ؟ أنترل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه : إنه الذبح فلا تفعلوا .. قال أبو لبابة : والله ما زالت قدماى حتى علمت أنى قد خنتُ الله ورسوله ، فنزلت فيه هذه الآية .. فلما نزلت شدّ نفسه على سَارِيَةٍ من سَوَارِى المسجد وقال : والله لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت أو يتوب الله على ، فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعامًا حتى خر مَغْشِيًّا عليه ، ثم تاب الله ــ تعالى ــ عليه فقيل له : يا أبا لُبَابة ، قد تِيبَ عليك ، فقال : لا والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلنى ، فجاءه فحله بيده ، ثم قال أبو لبابة : إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصَبْتُ فيها الذنب وأن أنْخَلِع من مالى ، فقال رسول الله ﷺ : يجزيك الثلث أن تتصدق به » ..

١٤ ــ الرياء ..

ومن آيات غش القلوب الرياء ، وذلك لأن المرء الذى يتجه بعمله إلى غير الله ــ عز وجل ــ ليس بذى قلب سليم ، وإنما فى قلبه غش ؛ لأنه ترك من هو أهل للتوجه ، وقصد من ليس له بأهل ..

والرياء كله دركات ، بعضها أسوأ من بعض ، وظلمات بعضها أظلم من بعض ، وأنواع بعضها أخس وأنكد من بعض ، فمنه الرياء المحض ، وهو أردأها ، ومنه ما هو دون ذلك ، ومنه خطرات قد أفلح من دفعها وخلاها ، وقد خاب من استرسل معها وناداها ..

فالعمل لغير الله أنواع وأقسام ، كلها مذمومة مردودة ، ومن الله متروكة ، فالله سبحانه وتعالى أغنى الشركاء ، وأفضل الخلطاء ، فمن أشرك معه غيره تركه وشركه ، فعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : يقول الله تبارك وتعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه » ..

وفى رواية لابن ماجة : « فأنا منه برىء وهو للذى أشرك » ..

والأنواع هى :

١ ــ الرياء المحض ..

وهو العمل الذى لا يُراد به وجه الله بحال من الأحوال ، وإنما يراد به أغراض دنيوية وأحوال شخصية ، وهى حال المنافقين الخلص كما حكى الله عنهم :

﴿ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ (النساء : ١٤٢) .

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الأنفال : ٤٧) .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (الماعون : ٤ ــ ٧) .

وهذا النوع كما قال ابن رجب الحنبلى يكون فى الأعمال المتعدية ، كالحج ، والصدقة ، والجهاد ، ونحوها ، ويندر أن يصدر من مؤمن : فإن الإخلاص فيها عزيز ، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط ، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة ..

٢ ــ أن يراد بالعمل وجه الله ومراءاة الناس ..

وهو نوعان :

(أ) إما أن يخالط العملَ الرياءُ من أصله ..

فقد بطل العمل وفسد والأدلة على ذلك بجانب حديث أبى هريرة السابق :

عـن شـداد بن أوس رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من صلى يرائى فقد أشرك ، ومـن صـام يرائى فقـد أشرك ، ومن تصدَّق يرائى فقـد أشرك ، وإن الله يقـول : أنا خيـر قسيم لمن أشرك بى شيئًا ، فإن جـدة عمله قليـله وكثيره لشريكه الـذى أشرك به ، أنا عنه غنى » ..

وعن أبى سعيد بن أبى فضالة الصحابى قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى منادٍ : من كان أشرك فى عمل عمله لله ــ عز وجل ــ فليطلب ثوابه من عند غير الله ــ عز وجل ــ ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » ..

وخرج الحاكم من حديث ابن عباس : « قال رجل : يا رسول الله إنى أقف الموقف وأريد وجه الله ، وأريد أن يُرى موطنى ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ حتى نزلت : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (الكهف : ١١٠) ..

قال ابن رجب : « وممن روى عنه هذا المعنى ، وأن العمل إذا خالطه شىء من الرياء كان باطلاً طائفة من السلف ، منهم عبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، والحسن ، وسعيد بن المسيب ، وغيرهم » ..

ومن مراسيل القاسم بن مُخَيْمِرَة عن النبى ﷺ قال : « لا يقبل الله عملاً فيه مثقال حبة من خردل من رياء » ..

ولا نعرف عن السلف فى هذا خلافًا ، وإن كان فيه خلاف عن بعض المتأخرين ..

(ب) وإما أن يطرأ عليه الرياء بعد الشروع فى العمل ..

فإن كان خاطرًا مارًّا فدفعه فلا يضرُّه ذلك ، وإن استرسل معه يُخشى عليه من بطلان عمله ، ومن أهل العلم من قال يُثاب ويُجازى على أصل نيته ..

قال ابن رجب : « وإن استرسل معه ، فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته ؟ فى ذلك اختلاف بين العلماء من السلف حكاه الإمام أحمـد وابن جرير الطبـرى ، ورجحا أن عمله

لا يبطل بذلك ، وأنه يُجازى بنيته الأولى ، وهو مروى عن الحسن البصرى وغيره » ..

ويستدل لهذا القول بما خرجه أبو داود فى مراسيله عن عطاء الخراسانى أن رجلاً قال : « يا رسول الله ، إن بنى سَلَمَة كلهم يقاتل ، فمنهم من يقاتل للدنيا ، ومنهم من يقاتل نجدة ، ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله ، فأيهم الشهيد ؟ قال : كلهم ، إذا كان أصل أمره أن تكون كلمة الله هى العليا » ..

وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو فى عمل يرتبط آخره بأوله ، كالصلاة ، والصيام ، والحج ، فأما ما لا ارتباط فيه ، كالقراءة ، والذكر ، وإنفاق المال ، ونشر العلم ، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه ، ويحتاج إلى تجديد نية ..

وكذلك روى عن سليمان بن داود الهاشمى أنه قال : « ربما أحدث بحديث ولى نية ، فإذا أتيت على بعضه تغيرت نيتى ، فإذا الحديث الواحد يحتاج إلى نيات ..

ولا يرد على هـــذا الجهـــاد ، كما فى مرسل عطاء الخراسانى ، فإن الجهاد يلزم بحضـــور الصـــف ، ولا يجوز تركه حينئذ فيصير كالحج » ..

٣ ــ أن يريد بالعمل وجه الله والأجر والغنيمة ..

كمن يريد الحج وبعض المنافع ، والجهاد والغنيمة ، ونحو ذلك ، فهذا عمله لا يحبط ، ولكن أجره وثوابه ينقص عمن نوى الحج والجهاد ولم يشرك معهما غيرهما ..

خرج مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « إن الغزاة إذا غنموا غنيمة تعجلوا ثلثى أجرهم ، فإن لم يغنموا شيئًا تمَّ لهم أجرُهم » ..

وروى عن عبد الله بن عمرو كذلك قال : « إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقًا ، فلا بأس بذلك ، وأما أن أحدكم إن أعطى درهمًا غرا ، وإن مُنع درهمًا مكث ، فلا خير فى ذلك » ..

وقـــال الأوزاعى : إذا كانت نية الغازى على الغزو ، فلا أرى بأسًا ..

وقال الإمام أحمد : التاجر ، والمستأجر ، والمكارى أجرهم على قدر ما يخلص من نيتهم فى غزاتهم ، ولا يكون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره ..

وقال أيضًا فيمن أخذ جعلاً على الجهاد : إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس أن يأخذ ، كأنه خرج لِدينه ، فإن أعطى شيئًا أخذه ..

وقال ابن رجب : (فإن خالط نية الجهاد نية غير الرياء ، مثل أخذ أجرة للخدمة ، أو أخذ شىء من الغنيمة ، أو التجارة ، نقص بذلك

أجر جهادهم ، ولم يبطل بالكلية .. وهكذا يقال فيمن أخذ شيئًا فى الحج ليحج به ، إما عن نفسه ، أو عن غيره ، وقد روى عن مجاهد أنه قال فى حج الجمَّال ، وحج الأجير ، وحج التاجر ، هو تمام لا ينقص من أجورهم شيء ، وهو محمول على أن قصدهم الأصلى كان هو الحج دون التكسب ..

٤ ــ أن يبتغى بعمله وجه الله فإذا أثنى عليه سُرَّ وفرح بفضل الله ورحمته فلا يضره ذلك إن شاء الله .

فعن أبى ذر ﷺ عن النبى ﷺ أنه سُئل عن الرجل يعمل العمل لله من الخير ، ويحمده الناس عليه ، فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » ..

وفى رواية لابن ماجــة : « الرجلُ يعمل العمل لله فيحبُّه الناس عليه » ..

وعن أبى هريرة ﷺ أن رجلاً قال : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل فيُسرُّه ، فإذا اطلع عليه ، أعجب ، فقال : « له أجران : أجر السر وأجر العلانية » ..

قال ابن رجب : (وبالجملة ، فما أحسن قول سهل بن عبد الله التُسترى : ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص ، لأنه ليس لها فيه نصيب ..

وقال يوسف بن الحسين الرازى : أعز شيء فى الدنيا الإخلاص ، وكم أجتهد فى إسقاط الرياء عن قلبى ، وكأنه ينبت فيه على لون آخر ..

وقال ابن عيينة : كان من دعــاء مطرِّف بن عبد الله : (اللهم إنى أستغفرك مما تبتُ إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ، ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمتُ أنى أردت به وجهك ، فخالط قلبى منه ما قد علمتَ) ..

١٥ ــ السخرية ..

ومن غش القلوب أن يسخر قوم من قوم ، وقد يكون المسخور منهم خيرًا من الساخرين ، ألا ترى إلى قول الله ــ تعالى ــ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (الحجرات : ١١) ..

وكذلك التنابز بالألقاب ، وهــو المناداة بأسوأ الألقاب ؛ ليغيظ المنادَى ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ ﴾ .

وقد عقب ربنــا تعــالى على ذلك بقوله : ﴿ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ .

فهل تظن أن الفاسق سليم القلب ؟!

قال ابن كثير :

« يَنْهَى تَعَالَى عَنْ السُّخْرِيَة بالنَّاس وَهُوَ احْتقَارُهُمْ وَالاسْتهْزَاء بهِمْ كَمَا ثَبتَ فِى الصَّحيح عَنْ رَسُول اللَّه ﷺ أَنَّهُ قَالَ « الْكبْر بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاس ــ وَيُرْوَى ــ وَغَمْط النَّاس » وَالْمُرَاد منْ ذَلكَ احْتقَارهمْ وَاسْتصْغَارهمْ وَهَذَا حَرَام فَإِنَّهُ قَدْ يَكُون الْمُحْتَقَرُ أَعْظَمَ قَدْرًا عنْد الله ــ تعالى ــ وَأَحَبَّ إِلَيْه منْ السَّاخر منْهُ الْمُحْتَقر لَهُ ، وَلهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ منْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خيرًا منْهُمْ وَلَا نسَاءٌ منْ نسَاء عَسَى أَنْ يَكُنَّ خيرًا منْهُنَّ﴾ فَنَصَّ عَلَى نَهْى الرِّجَال وَعَطَفَ بنَهْى النِّسَاء ، وَقَوْله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَلَا تَلْمزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَى لَا تَلْمزُوا النَّاس ، وَالْهَمَّاز اللَّمَّاز منْ الرِّجَال مَذْمُوم مَلْعُون كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَيْلٌ لكُلِّ هُمَزَة لُمَزَة﴾ وَالْهَمْز بالْفعْل وَاللَّمْز بالْقَوْل كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿هَمَّاز مَشَّاء بنَميم﴾ أَى يَحْتقر النَّاس وَيَهْمزهُمْ طَاعنًا عَلَيْهمْ وَيَمْشى بَيْنهمْ بالنَّميمَة وَهى اللَّمْز بالْمَقَال وَلهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿وَلَا تَلْمزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَى لَا يَقْتُل بَعْضكُمْ بَعْضًا قَالَ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهد وَسَعيد ابْن جُبَيْر وَقَتَادَة وَمُقَاتل بْن حَيَّان : ﴿وَلَا تَلْمزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَى لَا يَطْعَن بَعْضكُمْ عَلَى بَعْض وَقَوْله تَعَالَى : ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بالْأَلْقَاب﴾ أَى لَا تَدَاعَوْا بالْأَلْقَاب وَهى الَّتى يَسُوء الشَّخْص سَمَاعُهَا قَالَ الْإِمَام أَحْمَد : حَدَّثَنَا إِسْمَاعيل حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْن أَبى هنْد عَنْ الشَّعْبى قَالَ : حَدَّثَنى أَبُو جَبيرَة

ابْن الضَّحَّاك قَالَ : فينَا نَزَلَتْ فى بَنى سَلَمَة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بالْأَلْقَاب﴾ قَالَ : قَدمَ رَسُول اللَّه ﷺ الْمَدينَة وَلَيْسَ فينَا رَجُل إِلَّا وَلَهُ اسْمَان أَوْ ثَلَاثَة فَكَانَ إِذَا دَعَا أَحدًا منْهُمْ باسْم منْ تلْكَ الْأَسْمَاء قَالُوا : يَا رَسُول اللَّه إِنَّهُ يَغْضَب منْ هَذَا فَنَزَلَتْ : ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بالْأَلْقَاب﴾ وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ مُوسَى بْن إِسْمَاعيل عَنْ وَهْب عَنْ دَاوُدَ به وَقَوْله جَلَّ وَعَلَا : ﴿بئْسَ الاسْم الْفُسُوق بَعْد الْإِيمَان﴾ أَى بئْسَ الصِّفَة وَالاسْم الْفُسُوق وَهُوَ التَّنَابُز بالْأَلْقَاب كَمَا كَانَ أَهْل الْجَاهليَّة يَتَنَاعَتُونَ بَعْدَمَا دَخَلْتُمْ فى الْإِسْلَام وَعَقَلْتُمُوهُ ﴿وَمَنْ لَم يَتُبْ﴾ أَى منْ هَــذَا ﴿فَأُولَئكَ هُمْ الظَّالمُونَ﴾ ..

١٦ ــ التجسس ..

والمتجسس يريد أن يعرف أخبار الناس وأسرارهم خفية ، وهذا دليل على غش قلبه ؛ فتلك شهوة غير سوية ..

ونحن مع الأسف نجد تلك الشهوة فى الأسرة الواحدة ، حيث يقول الوالد لطفله : من كلمت أمك ؟ ومن جاءنا وأنا فى العمل ؟ وماذا قالت جدتك ؟..

وإذا خرج الطفل مع أبيه ، سألته أمه عند عودته : أين ذهبتما ؟ وماذا كان من والدك ؟ ماذا قيل له ؟ وماذا قال ؟

وبعض الشباب يضع فى بيته كاميرا ليتجسس على زوجته ، وقد تصنع الزوجة مثل هذا ..

حياة مضطربة قائمة على الشك والريبة ، والرغبة فى إيقاع الأعزة فى مواطن الريب والشبهات لا تدل على سلامة القلوب ..

إنما التجسس المحمود أن يكون فى الخير ، كما قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ (يوسف : ٨٧) .

قال ابن كثير :

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ أى عَلَى بَعْضكُمْ بَعْضًا وَالتَّجَسُّس غَالِبًا يُطْلَق فِى الشَّرّ وَمِنْهُ الْجَاسُوس وَأَمَّا التَّحَسُّس فَيَكُون غَالِبًا فِى الْخَيْر كَمَا قَالَ ـ عز وجل ـ إِخْبَارًا عَنْ يَعْقُوب أَنَّهُ قَالَ : ﴿يَا بَنِى اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُف وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْح اللّه ﴾ وَقَدْ يُسْتَعْمَل كُلّ مِنْهُمَا فِى الشَّرّ كَمَا ثَبَتَ فِى الصَّحِيح أَنّ رَسُول اللّه ﷺ قَالَ : « لَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَاد اللّه إِخْوَانًا » وَقَالَ الْأَوْزَاعِى : التَّجَسُّس الْبَحْث عَنْ الشىء وَالتَّحَسُّس الِاسْتِمَاع إِلَى حَدِيث الْقَوْم وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ أَوْ يَتَسَمَّع عَلَى أَبْوَابهمْ » ..

ويقول البغوى فى تفسيره :

« ولا تجسسوا : التجسس : هو البحث عن عيوب الناس ، نهى الله ـ تعالى ـ عن البحث عن المستور من أمور الناس وتتبع عوراتهم حتى لا يظهر على ما ستره الله منه ..

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسى ، أخبرنا زاهر بن أحمد ، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمى ، أخبرنا أبو مصعب عن مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة أن رسول الله قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا » ..

أخبرنا أبو بكر محمد بن محمد بن على بن الحسن الطوسى بها ، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفراييني ، أخبرنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلى ، أخبرنا عبد الله بن ناجية ، حدثنا يحيى بن أكثم ، أخبرنا الفضل بن موسى الشيبانى ، عن الحسين بن واقد ، عن أوفى بن دلهم ، عن نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يفضِ الإيمان إلى قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورات المسلمين ، يتتبع الله عورته ، ومن يتتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله » ..

قال : « ونظر ابن عمر يومًا إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم عند الله حرمة منك » ..

وقال زيد بن وهب : قيل لابن مسعود : هل لك فى الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمرًا ، فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ، فإن يظهر لنا شىء نأخذه به ..

(ولا يغتب بعضكم بعضًا) ، يقول : « لا يتناول بعضكم بعضًا بظهر الغيب بما يسوءه مما هو فيه » ..

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى ، أخبرنا أبو الحسن على بن عبد الله الطيسفونى ، أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهرى ، حدثنا أحمد بن على الكشميهنى ، حدثنا على بن حجر ، حدثنا إسماعيل بن جعفر ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » ..

ويقول الطبرسى :

« ولا تجسسوا » أى : ولا تتبعوا عثرات المؤمنين ، عن ابن عباس وقتادة ومجاهد .. وقال أبو عبيدة : التجسس والتحسس واحد ..

وروى فى الشواذ عن ابن عباس : « ولا تحسسوا » بالحاء .. قال الأخفش : وليس يبعد أحدهما عن الآخر ، إلا أن التجسس عما يكتم ، ومنه الجاسوس ، والتحسس بالحاء : البحث عما تعرفه ..

وقيل : إن التجسس بالجيم فى الشر ، والجاسوس صاحب سر الشر ، والناموس : صاحب سر الخير ..

وقيل : معناه لا تتبعوا عيوب المسلمين ، لتهتكوا العيوب التى سترها أهلها ..

وقيل : معناه ولا تبحثوا عما خفى حتى يظهر ، عن الأوزاعى ..

وفى الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تقاطعوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تنابزوا ، وكونوا عباد الله إخوانا » ..

١٧ ــ الشماتة ..

أذكر فى سياق هذه الآية من آيات غش القلوب « الشماتة » أن معبد الخزاعى قابل النبى ﷺ إثر القرح الذى أصاب المسلمين يوم أحد ، وكان يومئذ مشركًا ، لكنه كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد ..

وكانت خزاعة عيبة رسول الله ﷺ مسلمهم ومشركهم ، أذكر أن معبد الخزاعى حين قابل رسول الله ﷺ وهو مشرك قال له :

لقد عز علينا ما حدث لأصحابك بالأمس ، ووددنا أن لو عافاك الله فيهم ..

وأذكر هذه العبارة لأنها دليل على عدم الشماتة ، وقد قال ابن هشام :

« وقد مر به كما حدثنى عبد الله بن أبى بكر ، معبد بن أبى معبد الخزاعى ، وكانت خزاعة ، مسلمهم ومشركهم عيبة نصح لرسول الله ﷺ ، بتهامة ، صفقتهم معه ، لا يخفون عنه شيئًا كان بها ، ومعبد يومئذ مشرك ، فقال : يا محمد ، أما والله لقد عز علينا ما أصابك ، ولوددنا أن الله عافاك فيهم ، ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد ، حتى لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، وقالوا : أصبنا حد أصحابه وأشرافهم وقادتهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لنكرن على بقيتهم ، فلنفرغن منهم .. فلما رأى أبو سفيان معبدا ، قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقًا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط ؛ قال : ويحك ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصى الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم ، لنستأصل بقيتهم : قال : فإنى

أنهاك عن ذلك ، قال : والله لقد حملنى ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتًا من شعر ؛ قال : وما قلت ؟ قال : قلت :

كادت تهد من الأصوات راحلتى ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل

تـــردى بأســـد كـــرام لا تنابلة ... عند اللقـــاء ولا ميـــل معازيل

فظلت عدوًا أظـــن الأرض مائلة ... لما سموا برئيس غيـــر مخـــذول

فقلت : ويل ابن حرب من لقائكم ... إذا تغطمطت البطحاء بالجيـــل

إنى نذير لأهـــل البسل ضـــــاحية ... لكل ذى إربة منهم ومعقـــول

مـــن جيش أحمـــد لا وخش تنـــابلة ... وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ..

وقـــد روى عـــن مكحول عن واثلة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تظهر الشماتة لأخيك ، فيرحمه الله ــ عز وجل ــ ويبتليك » رواه الترمذى ..

والشماتة : الفرح ببلية العدو ، يقال : شمت به بالكسر يشمت شماتة ، وأشمته غيره وبات فلان بليلة الشوامت أى : شمت الشوامت ..

وفى الصحيحين وغيرهما عـــن أبى هريرة رضي الله عنه عـــن النبى ﷺ قـــال : « تعوذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء وشماتة الأعداء » ..

وكان عليه الصلاة والسلام يدعـو : « اللهم لا تشـمت بى عدوًا حاسدًا » .. وقد حكى الله ــ عز وجل ــ عن هـارون أنه قـال لأخيـه موسى عليهما السلام : ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ (الأعراف : ١٥٠) .

وقيل لأيوب عليه السلام : أى شيء من بلائك كان أشد عليك قال : شماتة الأعداء ..

وقـال الكلبى : لما مـات رسول الله ﷺ شمت به نساء كندة وحضرموت وخضـبن أيديهن وأظهـرن السرور لموته ﷺ وضربن بالدف ، فقال الشاعر :

بلـغ أبا بكـر إذا ما جئتـه ... أن البغـايا رمـن كل مـرام

أظهـرن من مـوت النبى شماتة ... وخضـبن أيديهـن بالعنـام

فاقطـع هـديت أكفهن بصارم ... كالبرق أومض فى متـون غمام

قال ابن عبد البر : « قال محمد بن عبد الله بن الحكم : سمعت أشهب بن عبد العزيز يدعو على محمد بن إدريس الشافعى بالموت أظنه قال فى سجوده فذكرت ذلك للشافعى رضي الله عنه فتمثل يقول :

تمنى رجـال أن أمـوت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى ... تهيأ لأخـرى مثلها فكأن قد

قال محمد بن عبد الله : فمات الشافعى رضي الله عنه واشترى أشهب من تركته مملوكًا ، ثم مات أشهب بعده بنحو من شهر أو قال : خمسة عشر أو ثمانية عشر يومًا ، واشتريت أنا ذلك المملوك من تركة أشهب رحمه الله ..

وقال العلاء بن قرضة :

إذا ما الدهـر جر على أناس ... حـوادثه أنـاخ بآخرينـا

فقـل للشـامتين بنا أفيقـوا ... سيلقى الشـامتون ما لقينـا

ولعبد الله بن أبى عتبة :

كل المصائب قد تمر على الفتى ... فتهـون غيـر شماتة الأعداء

وللمبارك بن الطبرى :

لولا شماتة أعداء ذوى حسد ... أو اغتمام صديق كان يرجونى

لما طلبت مـن الدنيا مراتبها ... ولا بذلت لها عرضى ولا دينى

ولعدى بن زيد :

فهل مـن خلـد إما هلكنا ... وهـل بالمـوت يا للناس عار

وعن خالد بن معدان عن معاذ قال : قال رسول الله ﷺ : « من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله » ، قالوا : من ذنب قد تاب منه ..

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعا : « إذا زنت أمة أحدكم فليحدها الحد ولا يثرب عليها » ..

قـال الخطابى : معنى « لا يثرب » لا يقتصر على التثريب وهو التعيير والتوبيخ واللوم والتقريع ..

وقال فى النهاية : « أى : لا يوبخها بالزنا بعد الضرب » ..

وقيل : لا يقنع فى عقوبتها بالتثريب بل يضربها الحد فإن زنا الإماء لم يكن عند العرب مكروهًا ولا منكرًا فأمرهم بحد الإماء كما أمرهم بحد الحرائر ..

نظر بعض العباد شخصًا مستحسنًا فقال له شيخه : ستجد غبه فنسى القرآن بعد أربعين سنة ، وقال آخر : عبت شخصًا قد ذهب بعض أسنانه فذهبت أسنانى ، ونظرت إلى امرأة لا تحل لى فنظر زوجتى من لا أريد ..

وقال ابن سيرين : عيرت رجلاً بالإفلاس فأفلست ..

قـال ابـن الجـوزى : « ومثـل هـذا كثير وما نزلت بى آفة ولا غـم ولا ضـيق صـدر إلا بزلـل أعرفـه حتى يمكننى أن أقول هذا بالشىء الفلانى ، وربمـا تأولت تأويلاً فيـه بعـد فأرى العقوبة .. »

فينبغى للإنسان أن يترقب جزاء الذنب فقل أن يسلم منه ، وليجتهد فى التوبة وقال محمود الوراق :

رأيت صـلاح المرء يصلح أهله ويعديهم داء الفسـاد إذا فسـد
ويشرف فى الدنيا بفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت فى الأهل والولد

وتستطيع أن تقول : إن الشماتة فرح فى المصائب ، ولن يفرح ذو قلب سليم فى المصائب ، إنما يفرح فيها من كان فى قلبه غش ..

١٨ ــ عدم التفكر ..

وعدم التفكر من كبرى الآيات على غش القلوب ، فهى قلوب غافلة لاهية ، وأى غش بعد هذا ..

انظر إلى سلعة من السلع ، إذا اشتريتها فوجدتها لا تعمل أصلاً ، فهل ترى فيها من غش ، أم ترى أنها تالفة يقينًا ، لا شك أنها تالفة ، وكذلك القلوب الغافلة ، وتأمل قول الله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وقـوله ــ عـز وجـل ــ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

وقـوله ــ عـز وجـل ــ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

ثم قال الله ــ تعالى ــ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

فلن يعرف الشكر من لم يتفكر ، ولم يتدبر ، وكثير من أصحاب القلوب التى فيها غش يرى أن عدم التفكر نعمة ، وأنه قد كبر دماغه ، وهو فى الحقيقة صغره وحقره ، وألغاه ، فتراه يأكل كما تأكل الأنعام ؛ إذ رضى بأن يكون مثلها ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ .

لأن الأنعام تأكل وترعى لينفع الناس لبنها وصوفها ولحومها ، وقد تحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، ولكن هؤلاء يأكلون ولا خير منهم ، ولا نفع يتأتى منهم حتى لأبنائهم الذين من أصلابهم ..

١٩ ــ الحسد ..

ومن آيات غش القلب الحسد الذى هو تمنى زوال النعمة ، سواء انتقلت إلى الحاسد أو لم تنتقل ، والدليل على أنه من غش القلوب نهى رسول الله ﷺ حين قال : « ولا تحاسدوا » ..

أى : لا يحسد بعضكم بعضًا ، والدليل على أن ذلك من غش القلوب أنه انشغال بما لا يحسن الانشغال به ، وهو الانشغال بالنعمة التى عند الناس ..

وعلى ذى القلب الذى فيــه غش أن ينشغل بما عنده من نعم الله ــ تعالى ــ عليــه ، فهــو ذو نعمــة ولكنه لا ينظر إليها باعتبار أنها نعمة ، إنما يصغرها ، أو يحتقرها ، وينظر إلى ما عند غيره كأن غيره هو الذى أنعم الله ــ تعالى ــ عليه دونه ، وقد قال الله ــ تعالى ــ : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ .

فلما حرم ربنا تعالى تمنى ما عند الناس فتح باب العطاء لكل إنسان ، حيث قال : ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ .

وفضل الله ــ تعالى ــ عظيم ، يؤتاه من سأله ، لا من سأله أن ينقل نعمة غيره إليه ، وهى بالحسد وبغيره لا تنقل ؛ بدليل قول الله ــ تعالى ــ : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ .

٢٠ ــ البغضاء ..

والبغضاء سواد فى القلب ، لا يرى من خلاله ذو القلب الذى فيه غش شيئًا من جمال الحياة ، أو جمال ما فيها ومن فيها ؛ لأنه كما لا يرى بعينيه ضوءا إذا فتحها فى الظلام فكذلك إذا أبصر قلبه وهو على سواد فلن يرى شيئًا جميلاً ..

وقد حذر النبى ﷺ من تلك البغضاء فى الحديث الذى رواه مالك فى الموطأ وغيره حيث قال ﷺ : « إياكم والبغضاء فإنها الحالقة ، لا أقول حالقة الشعر وإنما هى حالقة الدين » ..

ومن كان حليق الدين هل تظن أن قلبه سليم ، وكيف يكون سليمًا وهو لا يرى شيئًا جميلاً ..

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا » ..

وهو سواد كما قلت يغشى الصدور فلا يرى جمالاً فى أحد ، إنه يبغض كل الناس ، ولا يحب أحدًا منهم ، وليس مهمًا أن تحب ، ولكن المهم أن تؤدى مقتضى الحب من العدل حتى مع الذين بغضتهم ، وقد قال الله ــ تعالى ــ فى ذلك : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ .

وذلك لأن الحب إحساس قد يتواجد فى القلوب وقد ينعدم ، لكن يبقى مقتضاه عملاً لابد منه ، وهو مطلوب متى كان إليه سبيل ؛ وذلك لأن وجوده يسهل أمر مقتضاه ، فأنت تنفق على زوجتك أحببتها أم لا ، فإن أحببتها أنفقت وكأنك تأخذ منها الذى تعطيها ، وفى الأخرى تنفق عليها وأنت كاره ثقيل ، ولا شك أن العطاء مع الإحساس بالأخذ شىء جميل يهون عليك المال وهو عزيز غال ؛ لأنه عصب الحياة ..

٢١ ــ اليأس بلا داع ..

حتى وإن رأيت دواعى اليأس من طول الصبر ، والزلزلة لا تجد للمؤمن رائحة من يأس ، بخلاف من فى قلبه غش ، الذى لا يعرف غير اليأس وإن قطعت كل الأسباب بالأمل والاستبشار :

قال الله ــ عز وجل ــ فى أولى القلوب السليمة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ .

أرأيت إثر الزلزلة ماذا قالوا ؟ قالوا : متى نصر الله ؟

فنصر الله عندهم كما يقول اللغويون والبلاغيون مبتدأ ، فهو معلوم ، ومبنى عليه الخبر الذى تقدم وجوبًا ؛ لأن له الصدارة ، فهو اسم استفهام (متى) فالنصر عندهم ثابت ، والسؤال عن وقته ، ولم يقولوا : أين نصر الله ؟ ، والبناء هو البناء ، لكن هناك فرقًا ، بين السؤال عن الزمان والسؤال عن المكان ؛ فالسؤال عن الزمان معناه أنه موجود ، ولكن الإنسان لضعفه يتعجله ، أما السؤال عن المكان فمعناه الشك فى وجود نصر الله أصلاً ..

أى : أين هذا النصر ، أهو جهة اليمين أم جهة الشمال ، فى أى جهة يكون ؟

كالذى تقول له :

لِمَ لا تكون سعيدًا ؟

فيقول لك :

وأين هذه السعادة ؟

إنه لا يراهـــا ، ولا يعرف لها مكانًا ، مع أنه يعيش فى صلبها ، وينطلق من عمتها ، لكن إحساسه البغيض بما فى قلبه من غش يجعله فى إحساس بالتعاسة ، ومثل هذا لن يسعد أبدًا ، فالله عند ظن عبده به (اعتقاده) فإن ظن به خيرًا فهو خير ، وإن ظن به شرًّا فهو شر ..

٢٢ ــ المزاح مع الترويع ..

كان ﷺ يمزح ولكنه مع مزحته لا يقول إلا حقًّا ، ولا يروع أحدًا ، وذلك لسلامة قلبه ﷺ ..

فالمزاح مطلوب على هذا النحو ، أما إذا كان مزاح ترويع فهذا دليل على غش القلب ، أى من مازح الناس فروعهم كان فى قلبه غش ..

خرج أبو بكر ومعه نعيمان وسُوَيبط ﷺ ، وهما بدريان ، فقال نعيمان لسويبط وكان معه الطعام : أطعمنى ؛ فقال : لا ، حتى يأتى أبو بكر ، فذهب نعيمـــان وباع لأناس سويبطا على أنه عبد ، وجاء أبو بكر ، فرده ، ورد عليهم ثمنه ..

قال ابن حجر الهيثمى فى تحفة المحتاج ٤٤٢/٤ : « وأخبر النبى ﷺ فضحك هو وأصحابه من ذلك » ..

ذكر ذلك العلامة مع نهى النبى ﷺ عن ترويع المسلم يوم الأحزاب حيث أخذ أحد الناس سلاح زيد بن ثابت وكان نائمًا ، ثم ذكر هذه القصة ؛ وقال :

« وقد يجمع بحمل النهى على ما فيه ترويع لا يحتمل غالبًا كما فى القصة الأولى والإذن على خلافه كما فى الثانية ، لأن نعيمان الفاعل

لذلك معروف بأنه مضحاك مزاح ، كما فى الحديث ، ومن هو كذلك الغالب أن فعله لا ترويع فيه كذلك عند من يعلم بحاله » ..

وما أكثر الذين إذا مازحوك كسروا ذراعك ، أو أخذوا مالك ، أو أخفوا حقيبتك ، حتى يروعوك ..

فهؤلاء لا يعرفون النبل فى المزاح كمـــا أنهم لا يعرفون النبل فى الخصومة ، إذا خاصموا فجروا ، وإذا مازحوا فجروا كذلك ، فإذا بهم بعد أن روعوك يعتذرون إليك قائلين لك :

إننا كنا نمزح ، أتراك غضبت ..

وأنت بلا شك قد غضبت ، وتوجعت وتألمت ، ولكن ماذا تفعل لهؤلاء إلا أن تقول : إن بقلوبهم غشًا ..

٢٣ ــ الذبذبة ..

قال الله ــ تعالى ــ فى المنافقين : ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾.

والذبذبة معناها : عدم الاستقرار على شىء ، وعدم القرار فيه ، وهى آية من آيات غش القلوب ، وأصلها كما قال الله ــ تعالى ــ فى المنافقين ..

وهى موجودة فى المتشبهين بهم من المسلمين الذين تراهم لا يستقرون على شىء ، ولا يثبتون على مبدأ ، فهم فى حيرة ، أحيانًا يعبرون عنها ؛ فيقولون : إننا حائرون ، وأحيانًا لا يعبرون ، وإنما يعبر عن ذلك غيرهم ، فيقول : إنهم حائرون لا يثبتون ، ومن ثم تكون حياتهم مضطربة غير مستقرة ، وذلك من غش قلوبهم ، ولو كانت قلوبهم سليمة لسلمت من تلك الآفة ، إما إلى هذا ، وإما إلى ذاك ، فإن سلمت السلامة الحقيقية استقرت إلى الحق ، واطمأنت إليه ..

فلا تقولن إن الذى شرح بالكفر صدرًا ليس فى قلبه غش لأنه مستقر على الكفر ، أى على الضلال ، وأول ما قاله العلماء فى تفسير قول الله ــ تعالى ــ : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ .

قالوا : أن يسلم القلب من الشرك ؛ فإن لم يسلم قلب المرء من الشرك كان الغش فيه عظيمًا ، بل إنه أول غش خطير ، لأن القلب مناط الإيمان ومستقره ، ومستودع اليقين ومحله ، والإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، فإن وقر فى القلب الشرك كان القلب كما يقولون قلبًا مضروبًا ، أو مختومًا عليه ، أو كله غش ؛ لأنه نبض بضلال ، وعاش على وهم ، واطمأن إلى خرافة ، وقد قال خليل الله إبراهيم عليه السلام : ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ .

فهل تقول فيمن يعبد غير الله ــ تعالى ــ إنه ذو قلب سليم !

٢٤ ــ التردد ..

والتـــردد مـــن غش القلـــوب ، وقـــد وصـــف الله ــ تعـــالى ــ به المنـــافقين ، حيث قـــال تعـــالى فى آيـــة التـــوبة : ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ .

ومن عجب أنك ترى المتردد لا يتردد فى أمر سوء ، وإنما يتردد فى أمر الحسن ، فهو عند الشر ذو عزيمة وعند الخير يتردد ..

وقد قال الله ــ تعالى ــ : ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وأرى أن التوكل هنا فى هذه الآية الكريمة ، وفى غيرها معناه الإنجاز ، فمن أنجز كان متوكلاً ، ومن تردد كان غاش القلب ، متوهما التوكل ، وما هو بمتوكل ..

قابله اليوم ، واستمع إليه تسمع منه كلامًا جميلاً ، بأنه نوى أن يبنى بيتًا مثلاً ، ومر عليه بعد عشرة أعوام إن أحياه الله وأحياك فلن تجده قد بنى شيئًا ؛ لأنه متردد ..

وانظر إليه عند الشر والسوء لا تجده مترددًا فى الفساد والجرح ، وإصابة الناس ، إنما تجده ذا عزيمة فى ذلك جبارة ، وكان الأولى أن

يتردد فى الســـوء أمـــلاً ألا يفعله ، وأن يكون ذا عزيمة فى الخير أملاً أن يفعله ، لكن المتردد فى الخير ضعيف ، وقد جاء فى الحديث الشريف : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » ..

وما أرى ضعف المؤمن الذى فيه خير إلا بسبب عذره ، وعدم استطاعته على فعل الأمور العظيمة ، كما جاء فى الحديث أن الذين حبسهم العذر كانوا مع رسول الله ﷺ ومن معه من المجاهدين ، لهم أجر كأجرهم ، فهم مأجورون لأن فيهم الخير ، بحيث لو استطاعوا لجاهدوا ، وأعـــدوا للجهاد عـــدة ، ومن القوة قوة العزيمة ، قال الشاعر :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن تترددًا

٢٥ ــ الطمع عند الخضوع بالقول من النساء ..

ومن آيات غش القلـــوب الطمع عنـــد خضوع المرأة بالقول بدليل قول الله ــ تعـــالى ــ : ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ .

وطمعه فيها أول مراتب الفاحشة ، ترى من فى قلبه غش إذا خضعت المرأة بالقول سال لعابه ، وتحركت شهوته ، ولم يملك زمام

نفسه ، وقد قال عمر ﷺ للنبى ﷺ : « هلا أمرت نساءك بالحجاب يا رسول الله ؛ فإنهن يدخل عليهن البر والفاجر » ..

أى أن البر ليس بالطبع كالفاجر ، ومن أجل الفاجر رأى عمر الحجاب واجبًا ، لا من أجل البر ، وليس معنى هذا أن البر فى عصمة ، بدليـــل قوله تعـــالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ .

فالأطهر للقلوب أن تأخذ بالحيطة كما تنأى عن الشبهات ؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ..

والشاهد أن من فى قلبه كما ذكرت يثور لأدنى ملابسة ، كهذا الذى يستخف ، فتراه خفيفًا ، وقد قال الله ــ عز وجل ــ : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ ..

كذلك من غش قلبه ، ولم يكن قلبًا سليمًا خاليًا من العلل والأمراض ، والآفات ، ومنها طمعه حين تخضع المرأة بالقول ..

ونحن فى حاجة إلى أن نربى بناتنا على عدم الخضوع بالقول وقاية لهن من مثل مغشوش القلوب ، فقد تكون الفتاة ربيبة بيت فاضل ، لكنها تحاكى ممثلة ، أو فنانة ، أو مثقفة ، لا ترى فى خضوع القول إلا دليل رقة يجب أن يكون فى الأنثى ، ودليل ذوق هى له أهل ، وتراه ضربًا من الاحترام والتقدير ، ومن فى قلبه غش لا يعرف ذلك ، إنما

يعرفه على الوجه الذى يناسب مرضه ، ويوافق غشه ، فهو يقول : إنها بغى ، أو إنها راغبة فى مثلى ، فيؤذيها بقول ، أو بفعل طائش ، لا تجنى من ورائه خيرًا ، من أجل ذلك كان عليها أن تقول القول المعروف ، وأن ترد على سؤال من سأل بما لا زيادة فيه ، وأن تتقى الله ــ عز وجل ــ فى عرضها الذى حرص الشرع على صونه ، وفى أهلها ، وقبل ذلك وبعده فى دينها الذى هو عصمة أمرها ، وإذا كان الدين حقا عصمة أمرها فإنها تأتمر بأوامره ، وتتجنب نواهيه بغية أن تصل إلى رضوان ربها ورضاه ، والفوز بجنته ونعيمها ..

وألا تعتبر مثل هذه الدعوة تضييقًا عليها أو حـــدًّا مـــن حريتها ، أو سوء ظن بها ، فهذا من الأوهام التى يرسمها ، ويكبرها عندها أرباب الثقافة السوداء الفاسدة ، يوحون لها زخرف القول غرورًا ، ويتمسحون بالدين ، والدين منهم ومن أعمالهم وأقوالهم براء ، حيث يقولون لها : إن الحجاب فى الإسلام حرية شخصية ، وعادة لا عبادة ، وأنه نفسىٌّ قبل أن يكون بدنيًّا ، وأن التى تنوى أن تفعل المنكرات سوف تفعلها ولو كانت فى قفص من حديد ، وتنأى عن الرجال ، والشريفة العفيفة لا تفعل شيئًا من ذلك ولو كانت فى حضن الرجال ، وفى ملاهى الدنيا جميعًا ..

ومن ثم كانت صدمة الناس العنيفة حين رأوا أن الإسلاميين سوف يحكمون ، ما ذهب منهم إلا من رحم الله إلى أن العدل سوف يأتى ،

وأن الرحمة سوف تغشى الناس ، وأننا سوف نرى جمال الإسلام ، وجمال الحياة فى ظله ، إلى آخر ذلك ..

وإنما يرون أن البطش قادم ، وأن المرأة عدو لدود للمتدينين ، وأنها سوف تعيش زمان السوء ، وسوف يقبض على أية امرأة تمشى فى الشارع ، وقد بدا منها قيد أنملة من جسدها ، وأنها لن توظف ، ولن تكون طالبة دراسات عليا ، وأنها سوف تعامل معاملة الجوارى ، وسوف تجلد وترجم ، ويكون لها ما يكون من ظلمات بعضها فوق بعض ، وكأن المرأة لا تعيش حياتها على الوجه الذى تريد وتعرف إلا فى البعد عن الإسلام ، والذين عبروا عن الإسلاميين لم يعرفوا الحكمة والموعظة الحسنة ، وإنما يحدث بعض جفاوة فى أساليبهم ، فكأن شـــيطان تلك المـــرأة يقول لها بعد إذ سمعت ما سمعت : ألم أقل لك ..

٢٦ ــ تصور أن ليس له أعداء ..

ومن علامات غش القلوب تصور أنه ليس له أعداء ، وعجيب أمر الذين يقولون : فلان ليس له عدو ، أو العاقل من لم يتخذ له عدوا ، وهذا الكلام محمول على المبالغـــة ، بدليل قول الله ــ عز وجل ــ فى آية الفرقـــان : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ .

أى أن لكل نبى عدوا ، فليس هناك نبى بلا أعداء ، أيزعم إنسان أنه بلا عدو ؟ كيف ذلك ، بل إن الله ــ تعالى ــ يصرح بأنه له أعداء ، وعلى الحقيقة ليس لله عدو ؛ لأن الله ــ عز وجل ــ هو القاهر فوق عباده ، فلا يتجرأ إنسان كائنا من كان أن يقول : أنا عدو لله ، ولكن الذى يعبد من دون الله أندادًا إنما هو عدو لله ، أى معاد له ، وإذا دخل فى حرب مع الله ــ عز وجل ــ فالهزيمة له لا محالة ..

قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ .

وكلمة عدو الله تبث فى نفوس المؤمنين بالله ــ عز وجل ــ الرغبة فى الإعداد ؛ لأنك إذا أحببت الله ــ عز وجل ــ أردت أن تحارب عدوه قبل عدوك ، لأن حبك الله أشد من حبك لنفسه ، وقد قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .. الحديث .. »

ومعنى ذلك أن الله ــ تعالى ــ أحب إلى المؤمن من نفسه ، والذين يحبون يؤثرون أن يكون حبيبهم سعيدًا أسعد منهم ، ويحبون أن يدفعوا عنه الأذى قبل أن يدفعوه عن أنفسهم ، وذلك شأن المحبين ، ألا ترى أن الأم التى زارت عائشة رضى الله عنها فلم تجد عندها غير تمرة ، وكان معها ابنتاها ، فأخذت هذه التمرة ووضعتها فى فمها ،

لا لتأكلها ، وإنما لتقسمها نصفين أعطت كل بنت من بنتيها نصفها ، فلما عاد رسول الله ﷺ حكت له أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ما كان من قصة هذه الأم فبشرها ، وبشر مثلها بالجنة ، لأنها رحمت ابنتيها ..

والحب دافع إلى تلك الرحمة بلا شك ، أى أنه حاديها ، وباعثها ومحركها من القلب إلى الجوارح التى تترجم هذا المعنى الكبير الذى استقر فى القلب كى يكون رحمة حقيقية ملموسة ، فإذا عرفت أن حب الإنسان للإنسان يجعله يضع التمرة فى فمه ليقسمها حتى يعطى كل محب شقًّا ..

وربما تكون قد دخلت فمه ؛ فاستطابها ، وسال اللعاب من أجلها ، وبسببها ، وكأنه يناديه أن أدخلها ، فإننى فى شوق إلى توصيلها إلى معدة فارغة ، وأحشاء مشتاقة إلى ما يبلغها سبب الحياة ، ولكنه كالصائم فى رمضان ، يقول لكل شهواته : لا ..

وما ذلك إلا ابتغاء مرضاة الله الذى أعد له بابًا معينًا فى الجنة يقال له : باب الريان ، ينادى المنادى يوم الدين :

أين الصائمون ؟

فيجيبون ، فيأمرهم بدخول الجنة منه ، فإذا دخلـــوا غلق ذلك الباب ، فلا يدخل منه أحد غيرهم أى أن تكرمتهم عظيمة ، كلما

نظر المسلم فى هذا الحديث وتأمل فيه ، وتطلعت روحه إلى ذلك اليوم الذى ينادى فيه كى يدخل من باب معين يهون عليه كل شىء ، يهون عليه الجوع والعطش وشهوة النساء ..

ترى هل تهون عليه شهوة الغيبة والنميمة وسائر الشهوات التى تنقض أخـــلاق الصائمين فلا يصير لهم حظ من صيامهم إلا الجوع والعطش ..

من أجل ذلك كان الحب دافعًا قويًّا لكى يدفع المحب عن حبيبه كل أذى ..

والله ـــ عز وجل ـــ لا يحتاج إلى من يدفع عنه الأذى ؛ لأنه مالك الملك ، وبيده النفع والضر ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو يطعم ولا يطعم ـــ سبحانه وتعالى ..

ولكنه النظم الجليل ، والتعبيـــر الســـامى الكريم الذى يثير فى النفوس عاطفة الانتصـــار لدين الله ؛ فعـــدو الله ـــ تعالى ـــ هو عدو دينه ، وقد قال سبحانه : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وفى الآية بعدها يقول ـ عز وجل ـ : ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ .

فالذين هم أعداء لله أى أعداء لجبريل وميكال ورسل الله ، والله ـ عز وجل ـ عدو للكافرين الذين يكفرون بالله ورسله وملائكته خصوصًا جبريل وميكال ، فذكرهما بعد الملائكة من باب المخصوص بالذكر ؛ لفضلهما ، وأنهما من أعظم ملائكة الله ـ عز وجل ..

ولا شك أن نصرة دين الله من نصرة الله بنص الكتاب العزيز ، كما قال الله سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ .

والعلماء على أن ذلك على حذف مضاف ، أى إن تنصروا دين الله ينصركم الله وتكون نصرة دين الله ـ عز وجل ـ بإقامته ، شعائر تؤدى وهى معظمة ، وأركان تقام وهى مؤصلة فى النفوس ، وعقيدة صحيحة وهى مستقرة فى القلوب ، ويصدق ذلك كله عمل صالح ، ينفع العباد وتخضر به البلاد ، فالإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، فالعمل هو آية الآيات ، ألا ترى إلى الحديث الشريف الذى رواه البخارى فى صحيحه ، حيث جاء رجل يسأل النبى ﷺ عن الساعة ؛ فقال له عليه الصلاة والسلام :

وماذا أعددت لها ؟

كما قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ .

والسؤال : ماذا ينفقون :

ولم يكن : على من ينفقون ؟

فكان السؤال بماذا ؟ وكان الجواب من الذين ينفق عليهم ..

وقد قال العلماء إن ذلك من باب مراعاة الأهم ، فالأهم أن يعرف الناس موطن الإنفاق ومصارفه ، ومن أهم مصارفه ومواطنه الوالدان ، والأقربون ، ومن ذكرهم الله ـ عز وجل ـ ، وذلك من حسن القراءة لمنابع الدين الصافية ..

ومن هذا السياق قول الله ـ تعالى ـ : ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ ، فإنه على حذف مضاف ، تقديره : ألا بذكر وعد الله ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ .

أى ذكروا وعيد الله ، وقد تم إثبات ذلك هنا ..

ومن قوله تعالى : ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ .

فإن التعبير بـ « الماء » لا يعنى الماء المعروف الذى نشربه ، وإنما يراد به الخير كله ، من ماء وطعام وجواهر وذهب وفضة ، وإنما عبر بالماء ؛ لأن الماء سر الحياة ..

والناس يعرفون هذا المعنى ، وهو قول بعضهم لبعض : « إن الماء غير موجود ، وهذا المشروع يحتاج إلى ماء كثير » أى إلى مال كثير ، وبعضهم يعبر بالسيولة ..

والسيولة فى الماء ، والمال ، وكذلك كل ما من شأنه أن يجعل الحياة سائلة غير صلبة ، وميسرة غير معسرة ، وسهلة غير صعبة ..

وقد قال الله — عز وجل — : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ .

فسبيل الإنسان إلى حياة كريمة ، بل إلى حياة كلها رفاهية وسعادة أن يستقيم الإنسان على الطريقة ، والطريقة والسبيل مفرد لا جمع ، ونحن نقول : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ .

ويقول تعالى فى آية يوسف : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ .

ومن هذا السياق قول الله — تعالى — : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ .

فالرحمة من عند الله ، والعلم من لدنه ، والفرق بينهما أن كل شىء من عند الله ، لكن ما جاء منه بواسطة عبر عنه بـ « عنده » ، وما جاء بلا واسطة عبر عنه بـ « لدن » ، وهذا لم يذكره اللغويون فى الفروق التى بينهما ..

وقد أرشدنا ربنا تعالى بأن ندعوه باللدنية ، حيث قال : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ .

ومن يتبع « لدن » فى الكتاب الكريم تتوق نفسه للارتقاء إلى مستواها ، ألا ترى إلى قول الله — تعالى — : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ .

والأجر اللدنى كالعلم اللدنى الذى لا يكون بواسطة معلم من الناس ، كذلك يكون الأجر اللدنى عظيمًا عظيمًا ..

وسبيل الإنسان إلى ذلك الأجر اللدنى أن يفعل ما وعظه الله ــ عز وجل ــ به ، فما وعظ الله ــ عز وجل ــ عباده إلا بما فيه خيرهم ، أى أنه أمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ..

قـــال عز من قائل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

أى يعظكم بأن تلتزموا بالعدل ، والإحسان وإيتاء ذى القربى

وليس أعظم أجرا من صلة الرحم التى جاء فيها حديث مسلم : « من سره أن يبسط عليه رزقه ، أو يُنسأ فى أثره فليصل رحمه » ..

فصلة الرحم سبب فى زيادة العمر ، وفى زيادة الرزق وهما أهم ما يعنى الإنسان ، إذ لا أهم عنده من أجله الذى هو رأس ماله ، ولا أهم عنده من رزقه الذى هو شغله الشاغل وهمه الدائم ، وقد وعد الصادق المصدوق ﷺ بأن صلة الرحم تسبب الزيادة فى العمر والزيادة فى الرزق ، فهل وجدت حريصًا على هاتين الزيادتين أم ترى الناس يتفننون فى القطيعة والهجر غير الجميل ..

ونحن نقرأ القرآن ونقف عند قول الله ــ تعالى ــ مخاطبًا رسوله ﷺ فى أعدائه أعداء الدين : ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ .

فإذا كان هجر الكاذبين هجرًا جميلاً أفلا يكون هجر ذوى الأرحام هجرًا جميلاً !! حتى تستريح النفوس ويهدأ ما بها من ثورة وتفيق ، وتعود سيرتها الأولى من الصلة والوصال !

لا شك أن الهجر الذى حدد الإسلام مدته بثلاثة أيام بين الإخوة فى الدين ينبغى ألا يزيد على تلك المدة مع الأرحام ؛ لأنهم أولى بالوصل ، وأولى بالصلات ..

ومن الأمور المهمة التى تجعلك تقضى على كل خصام وتتوسل إلى الله ــ عز وجـــل ــ بصالح الأعمـــال ، ومنها أن تصل أرحامك استحضار ثواب الله العظيم على تلك الأعمال ، ومن ذلك هذا الفضل العظيم الذى يؤتيه الله ــ تعالى ــ من لدنه الأجر العظيم ..

ومن أعظم الأجر أن يزيد الله فى العمر ، ويزيد فى الرزق ..

وبعض الناس إن لم يكن معظمهم إذا شعر بزيادة راتبه مبلغًا تافها كل شهر أقام الحفلات ، وتغيرت هيئته واستبشر من بعد يأس ، وانفرجت أسارير وجهه ، ووعد من جديد بنيه وبناته وزوجه بأنه سوف يلبى حاجتهم ، ويأتى لهم بالخيرات ، ويكلم الناس بعضهم بعضًا فى هذا ، وينشئون معجمًا من معاجم السرور ، ومنـــه « هنيئًا يا عم ، أبشر يا خال ، يا حظك يا فلان ، ومن قدك يا سيدى ، ومشيت ، والبلية لعبت ، والمية كترت .. والدنيا ضحكت .. » إلى

غير ذلك من الألفـاظ والمفردات الدالـة على البهجـة والسرور ، أفلا يفرح لزيادة رزق الله ــ عز وجل ــ !

والله ــ تعالى ــ يقول : ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ .

ويقول تعالى : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ .

وأجـر الله ــ عز وجـل ــ فى الدنيـا والآخـرة : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ .

وعطاء ربك غير مقطوع ، بينما عطاء الناس وإن كثر مقطوع ، وذلك لسبب من أسباب ثلاثة :

الأول : أن دنياهم دنيا الأغيـار ، فقـد يتخلفـون عن العطاء فضـلاً عـن الزيادة بسبب تغير ظروفهم ؛ فـإن الدنيا دنيـا الأغيار ، وهى لا تدوم على حـال ، وكم من كريم بخل رغم أنفه ، أى لم يستطع عطـاء ؛ لتغيـر ظروفـه ، وضـيق ذات يده بعـد اتساعه ..

والله ــ عز وجل ــ الغنى دائمًا ، هو يغير ولا يتغير ، وهو الذى لو أعطى كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكه شيئًا ..

والثانى : أنه قد يعدك ، ثم يموت قبل أن يوفى ويتحول ماله إلى ورثته ، وقد يمضى الورثة وعد مورثهم أو لا يمضون ، فكم من كريم مات ، وصار ورثته من بعده بخلاء ، يتذكرونه بقولهم : إن أبانا ضيعنا بعطائه كما فعل أصحاب الجنة ، الذين كان أبوهم معطاء كريمًا ، فلما مات أبوهم أقسموا ألا يدخلنها اليوم عليهم مسكين ؛ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم ، قال الله ــ تعالى ــ :

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ .

والله ــ عز وجل ــ حى لا يموت ، وقد قال ــ عز وجل ــ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ .

والثالث : تغيير القلوب ، وكما تتغير الظروف المادية كذلك تتغير الظروف المعنوية ، ومن قديم قال العلماء :

ما سمى القلب قلبًا إلا لتقلبه ، وقد تأتيه رغبة فى عذابك أو تعذيبك ، أو يشى واشٍ بينكما ، فإذا القلب الذى أحبك بالأمس يبغضك اليوم ، وإذا المشاعر التى كانت فياضة بالمودة مشاعر بغض وكراهية ..

لكن الله ــ عز وجل ــ يقول : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ .

٢٧ ــ الجفـــاوة ..

فساد الطبع وســوء السلوك ، وانعــدام الفهم من مفسرات الجفاوة ، وفى الحديث الشريف الــذى ثبتت صحته قول النبى ﷺ : « مــن بدا جفا ومــن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن » ..

أى من سكن البادية جفا طبعه ، ومن كان همه تتبع الصيد انشغل به عن الفكر والحساب ..

وقد تفكرت فى هذا الحديث الشريف من حيث سؤال قد يرد على خاطر أحد من القراء ، وهو ما ذنب المكان ، والحقيقة أن القرآن الكريم أجــاب عن ذلك بما يفيد أنه ليس مرادًا به العموم ، فقد قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

فالأعراب فيهم وفيهم ، ومن ثم أقول : إن الذى آمن بالله واليوم الآخر واتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول عليه أن يكون أسوة للجافى ؛ وأن يتخذه ذلك الجافى حاديًا له نحو المعالى ، والواقع يشهد بأن هناك علماء وعباقرة ولدوا فى قرى ونجوع كالبوادى ، وهناك من تلك القرى والنجوع من لا يزال جافيًا ، ويتعلل بأنه ليس من أهل المدن والعواصم ، يقول لك : اعذرنى فأنا لست مثلك ، لقد ولدت وراء الجاموسة ، ولا أعرف إلا الحمار ، والماعز ونحو ذلك ..

فقل له : وقد ولد فى ذات قريتك فلان وفلان وفلان الذين سبقوا الغرب ، وكانوا آيات فى العلم والإبداع ، فلم تخلفت أنت ؟

والمسألة ليست مسألة علم وشهادات ، وإنما هناك من سكان تلك الأماكن النائية من هو مثال فى الذوق والطبع السليم ..

وهكذا ، ويفهم من الحديث أن المسلم الذى يحرص على أن يكون قلبه سليمًا من الغش عليه ألا تكون الدنيا منتهى علمه وأمله ، وشغله ، بل عليه أن يوازن بين العمل وإن كان صغيرًا وبين العلم ، وذكر الله ــ عز وجل ــ الذى تستضىء به القلوب ، وتستنير ..

وقد قـال الله ــ عز وجل ــ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

والجفاوة من آيات غش القلوب لا سيما قلوب الذين يحبونها ، ويضحكون كلما بدا معلم من معالمها ، وكأنهم رضوا بها ، كالذى يرضى بالجهل ، وبه يفخر ، ويلعن العلم والعلماء ، وذلك أيضًا من غش القلوب ..

الفصل الثانى

ما يتوهم أنه من غش القلوب

وبناء على ما سبق ذكره فى الفصل الأول من أمارات غش القلوب أقول :

إن هناك أمورًا قد تحدث لبسًا فى هذا الموضوع ؛ إذ يتوهم أنها من غش القلوب ، وهى ليست منه ، ومن ذلك :

١- التجاوز فى البيع ..

يشيع بين الناس أن فلانًا البقال أو الجزار يبيع بذمتين ، قال أحد الزبائن وقد سأل بقالاً عن ثمن كيلو الأرز ؛ فقال : أربعة جنيهات ؛ فصاح فيه فجأة وبدون تمهيد : يا ضلالى ، إنك بعته بالأمس للبواب فلان بثلاثة جنيهات ونصف ، إنك تبيع بذمتين وسوف يدخلك الله ـــ تعالى ـــ النار ..

وابتسم الرجل وكأن ابتسامته دليل جمال فى قلبه ، لا دليل غش فيه ، حيث قال : وهل أنت بواب ؟ إنك مهندس كبير ، وهذا هو السعر المعلن فى الدنيا جميعًا ، وقد تجاوزت عن البواب ؛ لأنه مسكين ، ولو راجعت حساباتى فسوف تجد أننى كتبت فيها أننى بعت له بأربعة ، أما النصف فهذا من زكـــاة مالى ، دفعتـــه من جيبى ، وليس شرطًا فى إخراج الزكاة أن أقـــول للمسكين : خـــذ ، هـــذا من الزكاة ؛ فالله ـــ تعالى ـــ أعلم بالنيات ..

وصدق الرجل ، فقد حوسب رجل ممن كانوا قبلنا ، ولم يكن له من الخير شىء إلا أنه كان يقول لعماله : تجاوزوا عن المعسر ؛ فقال الله ـــ تعالى ـــ لملائكته : نحن أولى بذلك منه ، تجاوزوا عنه « رواه البخارى » ..

وفى الصحيح قال ﷺ : « رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع سمحًا إذا اشترى سمحًا إذا قضى » ..

إنما غش القلوب فى التطفيف ، ونقـــص الميـــزان ، وبخس الناس أشياءهم ، واســـتغلال ظروفهـــم ، والاحتـــكار ، وغش السلعة والكذب ..

٢- إبداء شىء من المودة ..

وإبداء شىء من المودة من أجل التعايش ليس من غش القلوب ، أى ليس من غش القلوب أن تجامل شخصًا سيئًا جاءك ضيفًا ، وأنت لا تحبه ، فقد استأذن على النبى ﷺ رجلاً قال فيه : « بئس أخو العشيرة » فلما أذن له ، ودخل عليه لقيه ببشر وكرم ، فلما خرج الرجل ، وسئل رسول الله ﷺ عن ذلك الذى كان من قول فيه ، ومن فعل قال : « إن شر الناس من هجره الناس اتقاء فحشه » رواه البخارى ..

ولكن بشرط ألا توافقه على منكر ، ولا أن تعينه على ظلم ، ولا أن تمدح خلقه ، فهو بالنسبة إليك كالميتة والدم ولحم الخنزير بالنسبة إلى المضطر ، والضرورة تقدر بقدرها ، ومن عبقرية المسلم ، بل من حكمته أن يحسن معاملة جميع الناس ، لكنه ينظر من يصادق ، ومن لا يصادق ، وممن يزوج ابنته ، وبابنة من يتزوج ، فهناك فرق بين المعاشرة الدائمة ، والمواقف العارضة ، فلا تقل كما يقول الكثيرون : أنا أقول للأعور يا أعور فى عينه ، ولا يهمنى شىء ، ولا تسألنى أن أعامل السىء بإحسان ؛ فهذا ضرب من النفاق ، وأنا لست منافقًا ، أعوذ بالله من النفاق وأهله ، ومن يحبه ..

٣- المفارقة بين الزوجين ..

وقد تحدث المفارقة بين الزوجين بسبب الكره ، سمعت رجلاً يقول لصاحبه : لابد أن أطلق زوجتى ؛ فلا أحب أن أغشها ، فأنا أكرهها ، ولا أحبها ، وإن أبقيت عليها كنت غاشًّا لها ، وأنا لا أحب الغش ..

فقلت : ألم يقل الله ــ تعالى ــ فى سورة النساء : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ .

ما قال الله ــ تعالى ــ : « فإن كرهتموهن فطلقوهن » ؛ وهناك فرق بين الكره ، وهو تحمل الشىء بمشقة ، وبين البغض الذى هو

الشنآن بلغة القرآن الكريم ، والعرب ، فالبغض أشد وأعتى وهو بلوغ الكره منتهاه ، بحيث لا تستمر معه الحياة ، وقد قال الله ــ تعالى ــ : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ .

والحياة بكل ما فيها لا تخلو من كره ، أى لا تخلو من مشقة ، وقد قال الله ــ تعالى ــ : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ . ومع هذا الكره تفتدى الأم جنينها بروحها ، وتصبر على حمله ووضعه ، بل إنها تسعى إلى ذلك باذلة المال ، وقد تذهب إن تأخر الطب إلى الدجال حتى تحمل وتلد وتصبح أمًّا برغم الكره .

وكذلك العامل الذى يذهب مبكرًا إلى عمله ، خصوصًا فى الشتاء البارد ، يترك مخدعه الدافىء ، وينهض مبكرًا ، أى بمشقة من أجل تحصيل رزقه ، ورزق من يعول من ولد وزوجة ووالدين وغيرهم ، وكذلك طالب الدكتوراه الذى يعانى الرجوع إلى المراجع والمصادر القديمة والحديثة ، وينظر ما فيها ، ويقارن بينها ، ويبدى رأيه مدعمًا بالدليل الذى لا يحصل عليه فى طرفة عين ، ويصبر على التردد على المكتبات ، والرجوع إلى المخطوطات ، وقد يصبر على أستاذه المشرف عليه ، الذى قد يوجهه بغلظة ، ويعامله بقسوة ، إما لصالحه ، وإما لطبع فيه ، وكذلك حفت الجنة بالمكاره ، أى بالأعمال التى تؤدى بمقاومة الشهوات ، ورغبات النفس البشرية ، وكم لها من

رغبـــات : ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ .

فمن ذا الذى يعالج قضايا الحياة كلها على حب ورغبة ، لابد من المعاناة ، وبذل الجهد والمال ، وبتعود ذلك يصبح المكروه سهلاً ، ألا ترى إلى قول الله ــ عز وجل ــ : ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ .

فاستثنى المولى ــ عز وجل ــ الخاشعين من بنى جنسهم ، حيث إن الصبر وإقامة الصلاة ليست كبيرة عليهم ، وذلك لسببين :

الأول : أنهم تعودوا ذلك ، ومن تعود شيئًا وإن عظم سهل عليه ..

والثانى : أنهم يعتقدون أنهم ملاقو ربهم ، فهم يريدون عملاً صالحًا يتقربون به إليه ، ويخافون المقام بين يديه ، وقد قال الشاعر كثير صاحب عزة :

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنـــت لها النفس ذلت

والمفارقة لا تكون بسبب الكره كما هو واقع هذه الأيام مع الأسف ، وإنما تكون بسبب استحالة الحياة ، ولن تستحيل الحيـــاة إلا بسبب سوء الخلق ، وما يأتى به اللسان ، وما يكون عليه أحد

الزوجين من سوء الطباع ، وتغلب سيئ العادات ، وعدم الاستجابة للوعظ وغيره من وسائل الإصلاح ، أما الكره فأن تتحمل صاحبك مع شيء من المعاناة ، فهذا ممكن ، ومعايشتك من تكره بهذا التفسير ليس من غش القلوب ، وإنما هـــو مـــن التطلع إلى ما عنـــد الله من خير كثيـــر ، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ .

وقد قال تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

٤ – القسوة أحيانًا ..

والقسوة التى تكون اعتراضًا بين رحمتين ليست من غش القلوب ؛ لأنها بمثابة الضرورة ؛ فقد تقسو أحيانًا على من ترحم ؛ لتضبط فيه معادلة ، وتكون قسوتك لصالحه ، فمن رآك حين تقسو ، ولا عهد له برحمتك ظنك غاش القلب ، وتحدث فيك بخطب رنانة ، يأتى فيها بجميع شواهد الرحمة ، وقد يقرأ صفحة من هذا الكتاب ونحوه ، ويترك عشرات الصفحات ، فلا تتضح له رؤية ، يظنك مخالفًا كتاب الله ــ تعالى ــ وسنة نبيه ﷺ ، ويقول : لقد انتزعت الرحمة من قلبك ، جاء ذلك فى حديث البخارى ، حيث رأى رجل رسول الله ﷺ يقبل

الحسن أو الحسين ؛ فقال : أتقبلون صبيانكم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : نعم ، فقال الرجل : إن لى عشرة من الأبناء ما قبَّلت واحدًا منهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : وهل أملك وقد انتزعت الرحمة من قلبك ..

فهذا فى التقبيل ، فما بالك بالتعذيب ، ذلك التعذيب الذى رآك عليه مرة ، ولم يشهد عطفك عليه مرات ، ولا حنانك به ولا مودتك إياه ؛ فيظنك قاسيًا أبدًا ؛ فيتهمك بأنك رجل غاش القلب ، ليس فى قلبك مثقال ذرة من رحمة ، ومن خلا قلبه من الرحمة كان فى قلبه غش ، ولو أنصف لما حكم عليك قبل أن يتبين ، ولأمعن النظر فيك حين قسوت ؛ فإن قسوة الرحيم العارضة ليست كقسوة ذى القلب الذى لا يعرف إلا القسوة ..

٥- البادرة عند الغضب ..

وقد يطلق اللسان كلمة سيئة عند الغضب تسمى (بادرة) فيظنك من لا يعرفك أنك غاش القلب ، وليس ذلك صحيحًا ؛ فقد ذكر لنا النبى ﷺ أنه بشر ، وأنه يغضب كما يغضب البشر ، وسأل الله ــ عز وجل ــ أن يجعل لمن دعا عليه أو لعنه عند الغضب أن يجعل ذلك كفارة له ..

وقد غضب موسى عليه السلام فأخذ برأس أخيه يجره إليه بعد أن ألقى الألواح : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

لكن عندما قال له أخوه : يا ابن أم ، واعتذر قال : ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ .

ولما سكت عنه الغضب أخذ الألواح التى عند الغضب ألقاها ، قال تعالى : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ .

وهذا هو الفرق بين غضب ذى القلب السليم ، وبين غضب من فى قلبه غش ، فذو القلب السليم ابتداء لا يغضب لنفسه ، وإنما يغضب لله ، إذا انتهكت حرماته ؛ فقد ثبت أن رسول الله ﷺ لم يغضب لنفسه أبدًا ، وإنما كان يغضب إذا انتهكت حرمات الله ، وما غضب موسى عليه السلام لنفسه ، وإنما غضب لأن قومه عبدوا العجل ، وأشربوه فى قلوبهم بكفرهم من دون الله ــ عز وجل ــ ، فما قال

لقومه بئسما خلفتمونى من بعده ، أى باعتداء على داره أو ماله أو أخيه ، وإنما باتخاذهم العجل ، ومع ذلك الغضب العالى سأل رسول الله ﷺ ربه أن يجعل بادرته كفارة لمن أطلقها فى وجهه دعاء عليه أو لعنة له ..

وكذلك هدأت ثورة الغضب فى نفس كليم الله بمجرد أن قال له أخوه ما قال ، وذكره بالرحم ؛ فقال يا ابن أم ، مع أنه ابن أبيه أيضًا ، أى كان شقيقه ، وحين سكت عنه الغضب أخذ الألواح .

وهذا غضب سليم القلب ، إذا غضب غضب لله ، وإذا سكت عنه الغضب عاد سيرته الأولى ، وسأل الله العافية لمن كان سببًا فى غضبه ، والرحمة له : ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾ .

أما غضب ذى القلب الغاش فغضب ثورة عارمة ، يثور لأتفه الأسباب ، ولا يهدأ ، وإن سكت عنه الغضب أنطقه من جديد ، وقال له : أناشدك بكل غال عليك ألا تسكت ؛ فهو عمره كله فى غضب وإن هدأ ، وهذا الهدوء منه كالذى يقول فيه الناس هدوء يسبق العاصفة ، أى أنه دائمًا كالريح العاصف التى تدمر كل شىء ، وكثير من هؤلاء إذا غضب لا يلقى الألواح التى فى يده ، وإنما يلقى بفلذة كبده أو امرأته من الطابق العاشر ، حتى يلقى من ألقى به حتفه ، تراه يلقى بكل شىء ، ولا يلوى على شىء ، قد يطلق زوجته ، وقد

يقتلها ؛ حيث يصل إلى اللحظة التى أطلق عليها « لحظة العمى » ، وهى تلك اللحظة التى ينسى فيها المرء أن برأسه عقلاً ، فلا يفكر فى شىء إلا أن يرتكب من الحماقات ما يراه هو العقل والحكمة والصواب ، والرد لاعتباره وكرامته التى ضاع فيها كل شىء إلا بريق منها يأتى به الشيطان لكى يلقى به إلى التهلكة ، ويضيع ، وبعدها يفيق ، ويقول : ماذا فعلت ؟

إن غضب من كان فى قلبه غش منهج حياة ، فهو دائمًا على غضب ، وهو دائمًا على ثورة ، وثورة عارمة ، تقضى على كل شىء وتدمر كل شىء ..

أرأيت إلى ذلك الرجل الذى يفتعل المشكلات كل يوم ، بل كل ساعة ، فهو غير هادئ أبدًا ، وإن حاول أحد أن يصالحه فشل فى ذلك ، وإن زعم أنه نجح لما يراه من ذلك الهدوء الذى يسبق العاصفة ، كما قلت ، بالله عليك كيف يعاشر ذلك الإنسان ، ومثله امرأة دامت عشرتها على فسادها بسبب الأولاد ، وغير ذلك ، وهى غاشة القلب لا تهدأ أبدًا ..

أتصور حياة رجل مع امرأة كهذه إذا دخل بيته عائدًا من عمله واجهته بمشكلة وثورة ، فتراه يقول من أول خطوة يخطوها داخل البيت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وإذا دخل وحل لها تلك

المشكلة فرعت عنها مشكلات كثيرة ، وهكذا ، حتى إذا فتح عينيه يستقبل يومًا جديدًا حدث هذا أيضًا ، فقال : يا فتاح يا عليم ، كيف تكون هذه الحياة التى لا تخلو من مشكلات بلا شك ، لكنها المشكلات اللذيذة ، كالمشكلة التى تواجه الباحث فى إعداد رسالة الماجستير أو الدكتوراه أو فى إعداد بحث قيم ، إنها مشكلة وتؤرق عليه نومه وتكدر عليه صفو يقظته ، لكنها مشكلة لذيذة ، حيث إنها بمثابة الغاية التى تتراءى له ، ووظيفته وقيمة بحثه فى الحقيقة ، وبحثه عن حل لها يدفعه إلى بذل مزيد من العناء والمعاناة ، لكن الأمل يحدو به ، وهذا الأمل يخفف عنه الآلام ، فإذا وجد حلها شعر بأنه فى يوم عيد ، وكانت سعادته تعجز عنها الكلمات إن أرادت لها وصفًا ، وشعر كما يقول أهل الأدب والإبداع أنه فى يوم ميلاد جديد ، فما أجمل تلك المشكلة التى تشعرك آخر الأمر بهذا الشعور ، وكذلك مشكلة رجل يحاول أن يجد شقة واسعة لأولاده ، إنها مشكلة لذيذة ، تدفعه إلى مزيد من الادخار ، ومزيد من العمل الجاد ، فإن حقق حلاً لتلك المشكلة كان بمثابة الباحث الذى تواجهه مشكلات بحثه ويسعى جاهدًا لإيجاد الحلول العلمية المفيدة لها ، فإن حقق ذلك استراح ، وكذلك الباحث عن شقة واسعة لأولاده ، وسوف تقول : سوف تظهر أمامه مشكلات أخرى ..

قلت : نعم ، ولكنها كالتى سبقت ، سوف تدفعه إلى مزيد من عمل جاد متواصل بلا فواصل ، حتى يحلها جميعًا ، فإن قلت : إن الحياة لا تنتهى مشكلاتها ، قلت : نعم ، وهذا من أسرار جمالها ؛ لأنها تنتهى إلى حل لكل مشكلة ، حتى تنتهى تلك الحياة ، وقد قال الشاعر :

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجات من عاش لا تنقضى

وفى ذلك دعوة إلى القناعة من غير شك ، لكنها القناعة المعتبرة شرعًا ، أى التى تكون بعد تمام الأخذ بالأسباب ، وبذل أقصى الجهد ..

والبادرة عند الغضب غير المنهج الدائم ، أى أن هناك فرقًا بين أن يقول الإنسان كلمة سيئة عند غضبه ، وأن يكون كل كلامه سيئًا ، أى إذا غضب وإذا رضى ، سيان عنده ، فهو لا يعرف الكلمة الطيبة إلا لمامًا ، وكأنها الضرورة ، ومن سوء ما يتربى عليه الشباب ويتجرعونه أنك تجدهم لا ينطقون إلا بالفاحش من الألفاظ ، ويضحكون ، ويسخرون من كل شىء ، يقول أحدهم لصاحبه (يا كذا) وما أدراك ما كذا ، ويا ابن كذا ، وما أدراك ما ابن كذا ، كلمات تعرف فى الفقه الإسلامى بالقذف ، وذلك فى الغضب والرضا ..

ومما يسوغه الناس لذلك قولهم : فلان لسانه سيئ ، وقلبه طيب ، أو أبيض ، وليس ذلك صحيحا ؛ فقد قال الشاعر من قديم :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وكل إناء بما فيه ينضح ، وإنما تكون البادرة عند الغضب أى أنها الضرورة ، ولكنها ليست منهجًا عامًّا ، وحياة دائمة ، ومنطقًا مستمرًّا ، لا يفارقه ، وقد توسع الناس فى ذلك مع الأسف ، فصارت لدينا معاجم من ألفاظ السوء ..

وقد تأملت ما كان من كلمات السوء فى صدر الإسلام فوجدتها كلمات معدودة ، مثل (ويحك ، وثكلتك أمك ، وتربت يداك) والآن ما عادت الكلمات السيئة معدودة ، بل صارت بلا حصر ، ولا عدد ، وهذا نذير شؤم ، ودليل غش فى القلوب ، يجب التخلص منه ، وإصلاحه حتى تسلم القلوب من عيبها الخطير ، وهو الغش الذى إذا وجد فى السلع والبضائع عابها ، وكان سببًا فى إغلاق مصانعها ، وكساد تجارتها ، وإفلاس أصحابها ، فما عسى أن يكون إذا وجد فى صدور من نعاشرهم من الناس ، وإذا كان هذا الصدر الذى فيه قلب غاش صدر زوج أو زوجة بينهما أولاد ، أو صدر والد أو والدة أو أخ أو صديق ، والفرار منه صعب المنال ، كيف يعيش إنسان مع زوج له غاش القلب ، وإذا فكر يومًا فى فراقه ، ولاحت له

فى الأفق بارقة أمل جديد ، تلوح من بعيد ، فبدا له أنه سليم القلب ، فارتبط به ، ثم اكتشف بعد ارتباطه أنه كالأول ، غاش القلب ، فماذا يفعل ؟ إنه يصبح كالذى دخل سوقًا كل ما فيه سلع مغشوشة ، ورحم الله من قال : إذا كانت الحياة كلها حرامًا فليس بد من العيش فيها ، أى أنه لابد من العيش فى الحياة ، وإن كان جميعها حرامًا ، لكنه عيش المضطر الذى يأخذ منها ما يبلغه ، دون أن يتمول الكثير ، ودون أن يشبع ، ولا شك أنه سوف يتناول ذلك ، وهو غير سعيد ، أو راض به ، فحياته حياة مضطرب ، وذلك أهون من حياة من يقابل غاش القلوب كلما فر من أحد قابل غيره ، فأية حياة هذه ؟

ويعين على هذا الفحش عدم التناهى فيه ، وعدم درئه بالحسن : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ .

أى أنه لا يطيق أن يدفع السيئة بالحسنة إلا الذى يصبر ، والصبر مفقود فى حياتنا إلا عند من رحم الله ــ تعالى ــ وأوتى القلب السليم ، الذى يكون محلاً للصبر ، والمعانى العظيمة ، وقد ذم الله ــ تعالى ــ بنى إسرائيل ، ولعنهم ؛ لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، قال عز من قائل فى سورة المائدة : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ

بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ .

واليـوم نرى بعضـنا يشجع بعضًا على السـوء ، وإذا نصح بعضـنا بعض الشـباب نصـح له بأن يرد على من أساء إليه بإساءة أبلغ ، ويربى كثير منا أولاده على ذلك مـع الأسـف ، يقول لهم : « من شتمك فاشتمه ، ومن ضربك لا تسكت له ، ومن مزق حقيبتك فمزق حقيبته أكثر ، ومـن أخذ منك قلمًا فخذ منه حقيبة أقلامه » ..

وقل من تجده يقول لولده : « إذا أساء إليك زميلك فاشتك إلى الأستاذ » حتى إذا شب عرف أن حقه إنما يحصل عليه بالقانون ، لا بالذراع كما هو متفشٍّ الآن فى زماننا ، وشرعًا لا يقيم أحد الحد على أحد ، وإنما يقيمه السلطان ؛ فإن أهمله فلا أحد يقيمه من الناس ، وإنما الأمر مفوض إلى الله ــ تعالى ــ ، وعلى من ارتكب ما يوجب الحد أن يتوب إلى الله ــ عز وجل ..

٦- ارتكاب المعاصى ..

ومن الأمور التى تبدو من باب غش القلوب ، وليست منه ارتكاب المعاصى بشرط عدم الإصرار عليها ، ودليل ذلك أن مريم عليها

السلام حين اعتزلت قومها لتصلح بعض شأنها وتمثل لها الملك بشرًا سويًا : ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ .

أى لو كنت تقيًّا وسمعتنى أعـوذ بالرحمـن منـك ابتعـدت عنى ، ولم تمسسنى بسـوء ، وانظـر إلى التعبيـر بتـقى ، فالتـقى بلا شك سـليم القلب ، لكنـه بشر ، والبشر يخطئ ويصيب ، وقـد قـال الله ــ تعـالى ــ فى المتقيـن : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ .

فسماهم عاملين ، كما سماهم متقين ، مع أنهم يظلمون أنفسهم ، ويرتكبون الفاحشـة ؛ وذلك لأنهم غيـر معصومين ، فلا عصمة إلا لرسل الله عليهم السلام ..

ولكن الفرق أن هؤلاء ليسوا مجرمين ، ولا طغاة ، وإنما هم يتوبون إلى الله ــ عز وجل ــ ، ويستغفرونه ، والله يقبلهم ويتوب عليهم ..

وقد جاء فى الحديث الصحيح قول النبى ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »

أى أنه ساعة يرتكب مثل هذه الآثام لا يكون مؤمنًا ، لكنه يعود إلى إيمانه من جديد ، ويعود إلى ربه من جديد ، والله يفرح بتوبة عبده المؤمن ، وهو ساعة يرتكب تلك الآثام يكون شخصًا ضعيفًا ، ويكون قلبه معطلاً ، كأعظم الآلات التى تتعطل ساعة من زمان ، أو باللغة المعاصرة (تهنج) لكنها بعد زمن قصير تعود إلى العمل على أحسن ما يكون ، كما كان أحسن ما يكون قبل هذا التعطل ..

كما تكسف الشمس ، ويخسف القمر ، إنها لحظات ، أو بعض الوقت ، ثم تعود الشمس مشرقة وضاءة ، ويعود القمر ضياء ، وما هذه اللحظات إلا إشارات على أن الكمال لله وحده ، ألا ترى إلى قول الله ــ تعالى ــ فى سورة الأنعام : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ

ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ .

فكل شىء يأفل ، ويكسف ، ويخسف ، لكنه قد يعود ، فإن عاد كان عوده جميلاً ، فالعود أحمد ، وإن اختفى إلى الأبد فالبقاء لله ــ عز وجل ــ وحده : ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

وكم من كائن آفل وإن بدا أمام العيون مشرقًا ، ومن ذلك غاش القلب ، الذى قال الله ــ تعالى ــ فيه : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ﴾ .

فما أكثر الذين وجودهم والعدم سواء ، بل إن عدم وجودهم أفضل من وجودهم ؛ لأنهم لا ينفعون أولادهم ، ولا أهليهم ، وذلك لأنهم أصحاب قلوب فيها غش ، وليسوا أصحاب قلوب تتعطل ساعة كما تتعطل الآلات العظيمة ، ثم تعود ، أو كما تكسف الشمس ويخسف القمر ، ثم يعودان من جديد لأداء رسالتهما فى حياة الناس ، التى سخرهما الله ــ تعالى ــ من أجلهم ، وكل فى فلك يسبحون ..

فلا تحكم على من تراه يفعل ذنبًا ، ولا تكن عليه قاسيًا بهذا الحكم ، فتقول : إنه ذو قلب فيه غش ؛ فسبحان من له الكمال وحده ، وصلى الله وسلم على من لهم العصمة من رسل الله ..

ولكن انظر إليه بعـــد ارتكابه ذلك الذنب ، هل تراه يتوب ؟ وهل تراه بالفعل قد ندم على ما فعل من سوء ، وقد استقام على الطريقة ..

فإن كان ذلك منه فاحكم بأنه إنسان ضعيف ، ونفسه التى بين جنبيه أمارة بالسوء ، ومعه شيطان لا يفارقه ، لكن قلبه ما زال حيًّا متى تاب من قريب ..

بخلاف الذى اعتـــاد المعاصى ، فهـــو يصحو عليها وينـــام ، فهذا قد قسا قلبه لطول العهد بها ، ألا ترى إلى قول الله ــ تعالى ــ : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ .

الفصل الثالث

فى الضمانات الشرعية للوقاية من غش القلوب

هناك ضمانات شرعية بلا شك للوقاية من غش القلوب ، ولكن قبل أن أذكر تلك الضمانات أود أن أقول إن أهمها التحذير من غش القلوب ، الذى هو الوازع الدينى ، وهو مقدم على الوازع القانونى ، الذى يحترمه كثير من الناس ، ويلعبون فى ثغراته حتى يخرجوا من آثار هذا الغش أبرياء ، وقد روى فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إنما أنا بشر وإنما أنا أقضى بينكم بما أسمع منكم ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من أخيه ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا ، فإنما أقطع له قطعة من النار » ..

وقد روى أن هذا الحديث روى فى رجلين اختصما فى قطعة أرض ، هذا يقول : هى لى ، والآخر يقول : هى لى ، فلما قال النبى ﷺ ذلك تركاها ، قال ابن كثير :

ثبت فى الصحيحين من رواة هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن زينب بنت أم سلمة ، عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ ، سمع جلبة خصم بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : « ألا إنما أنا بشر وإنما أقضى بنحو مما أسمع ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليحملها أو ليذرها » ، وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع ، عن أم سلمة ، قالت : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ فى مواريث بينهما قد درست ، ليس

عندهما بينة ، فقال رسول الله ﷺ : « إنكم تختصمون إلى وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى بينكم على نحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى بها إسطامًا فى عنقه يوم القيامة » فبكى الرجلان ، وقال كل منهما : حقى لأخى ، فقال رسول الله ﷺ « أما إذا قلتما فاذهبا فاقتسما ، ثم توخيا الحق بينكما ثم استهما ، ثم ليحلل كل منكما صاحبه » وقد رواه أبو داود من حديث أسامة بن زيد به ، وزاد « إنى إنما أقضى بينكما برأى فيما لم يترل على فيه » ..

وإذا علم المؤمن أن قلبه محل إيمانه ، وأن الدخل فيه أو الغش يضر بسلامته ؛ فيؤذيه ذلك فى الدنيا ، ويوم لقاء ربه ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ .

سلم قلبه من الشرك الذى هو أول الموبقات ظاهرًا كان الشرك كعبادة الأوثان أو خفيًّا كالرياء والخرزة الزرقاء وغير ذلك من صوره ، وهى كثيرة ، وذلك لأن الذى يضر بالقلب فيؤذى صاحبه فى الدنيا ببغض الناس له ، واعتزالهم إياه يجب التخلص منه والفرار والتوبة منه ، وكذلك الأهم ، وهو الضرر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ..

أما الضمانات الشرعية فتتلخص فى الأحكام الشرعية التى تترتب على غش القلوب من الإضرار بالناس فى الزواج ، وهو عقد ، وفى غيره من العقود التى تنفسخ بسببه ، ومن ذلك الإخلال بالعين المؤجرة ، بأن يستعملها فى غير ما استأجرها من أجله ، أو أن يفسدها ، ولا شك أن ذلك من غش القلوب ، حيث إنه يوم جاء ليستأجرها قال شيئًا غير الذى فعله ، وذلك من غش القلوب ..

كالذى أخفى عيبًا فيه عند الزواج ، أو التى أخفت فيها ذلك ، فلما حدث البناء تبين ، وهذا من الغش ، وعندئذ يكون الفسخ ..

ومن هذه الأحكام ما يلى :

١- فى الخلع ..

هناك أحكام تتعلق بالخلع ، وآثار تترتب عليه ، حتى من الناحية القانونية الواردة فى أحكام القضاء المصرى ونلخص ذلك فيما يلى :

ـ الفرق بين الخلع والتطليق للضرر وأثر كل منهما على حقوق الزوجة والميراث وموقف قائمة منقولات الزوجية ..

ـ الخلع ليس له سبب مثل دعوى التطليق للضرر إلا أن تذكر الزوجة أنها تخشى ألا تقيم حدود الله ، والحقوق التى يشملها الخلع والتى تسقط (النفقة ونفقة العدة والمتعة والمؤخر) وتلتزم الزوجة برد

مقدم المهر الثابت بوثيقة الزواج أو الذى يستطيع الزوج إثباته بشهادة الشهود أمام المحكمة التى تنظر الخلع ..

موقف قائمة المنقولات :

ولا يشمل الخلع قائمة المنقولات لأنها فى الأصل تعتبر ملكًا للزوجة ولا تتنازل الزوجة فى الخلع إلا عن الحقوق التى تثبت لها شرعًا قبل الخلع أو بعده مثل المتعة او العدة والخلع حكمه نهائى بات ، ولا يقبل الطعن بأى طريق من طرق الطعن ..

الخلع وأثره على نفقة الصغار والحضانة :

ـ وكذلك الخلع لا يشمل أى حق من حقوق الصغار كالنفقة أو الحق فى الحضانة ولا يمنع الأب من رؤية أبنائه ، و يمنع الحق فى الأجور لأنها تثبت بعد الطلاق ولم تكن موجودة قبله ليشملها الخلع ..

أثر الخلع على الميراث :

لا ميراث للمعتدة من طلاق بائن إلا فيما إذا كان الطلاق دون إرادتها وتم الطلاق فى مرض الموت (المادة ٣/١١ من قانون رقم ٧٧ لسنة ١٩٤٣) ، ومات المطلق فى هذا المرض وهى فى عدته ويكون ذلك ردًّا عليه قصده السيئ ..

الخلع طلاق بائن :

والخلع هو طلاق بائن يتم بإرادة الزوجة وبرضاها وسواء كانت الوفاة فى العدة أم لا ، لا يرث أى منهما الآخر ؛ لأن العدة هنا ليست ليفكر أى منهما فى الرجعة أم لا ، إنما لاستبراء الرحم بعد انفصام عرى الزوجية بالخلع الذى يعد بائنًا فى أثره ..

لا يجوز الطعن على حكم التطليق بالخلع :

حـــكم التطليق بالخلع بات وغيـــر قابل للطعـــن بأى طـــريق ولو بالاستئناف ، أما التطليق للضرر تلتزم الزوجة بإثبات الضرر ؛ لأنها دعوى لابد لها من سبب ، فلا يسقط أى حق من حقوق الزوجة التى يسقطها الخلع ويجوز الطعن عليه بالاستئناف ولا يطعن عليه بالنقض ..

٢- فى الزواج وفسخ عقده ..

جاء فى كتاب الحاوى الكبير فى فقه الإمام الشافعى للعلامة أبى الحسن الماوردى فى كتاب النكاح بيان العيوب التى تؤدى إلى فسخ عقد النكاح ، والتى منها ما يكون فى الزوج ومنها ما يكون فى الزوجة ، والأولى بكل واحد منهما بيانها قبل العقـــد ؛ فكتمانها من غش القلوب ، وهو يؤدى إلى فسخ عقد النكاح ضمانًا للحقوق ، ومنعًا للغش ، قال الماوردى :

قد مضى الكلام فى العيوب التى يفسخ بها عقد النكاح وأجناسها سبعة : اثنان يختص بهما الرجل ، وهما : الجب والعنة ، واثنان تختص بهما النســـاء ، وهما : الرتق ، والقرن ، وثلاثة يشترك فيها الرجال والنساء وهى : الجنون ، والجذام ، والبرص ..

فأما ما يختص به الرجـــال من العنـــة فله باب يأتى ، وأما الجب : فهو قطع الذكـــر ، فـــإن كان جميعـــه مقطـــوعًا فلها الخيار : لأنه أدوم ضررًا من العنـــة التى يرجى زوالهـــا ، وإن كان بعض الذكر مقطوعًا نظر فى باقيـــه ، فإن كـــان لا يقدر على إيلاجه إما لضعفه أو لصغره فلها الخيار ، وإن كان يقدر على إيلاجه ففى خيارها وجهان :

أحدهما ــ وهو الصحيح ــ : أنه لا خيار لها : لأنه يجرى مجرى صغر الذكر الذى لا خيار فيه ..

والوجه الثانى : لها الخيار : لأنه نقص لا تكمل به الإصابة .

وأما الخصاء : وهى قطع الأنثيين مع بقاء الذكر ، ففى كونه عيبًا يوجب خيارها قولان :

أحدهما : ليس بعيب ، ولا خيار لها فيه : لقدرته على الإيلاج ، وأنه ربما كان أمتع إصابة ..

والقول الثانى : أنه عيب ، ولها الخيار : لأنه نقص يعدم معه النسل .. ولو كان خنثى له فرج زائد ، أو كانت خنثى لها ذكر زائد ، ففى كونه عيبًا يوجب الخيار قولان :

أحدهما : ليس بعيب : لأنها زيادة عضو ، فأشبه الإصبع الزائدة ..

والثانى : أنه عيب : لأنه نقص يعاف ..

فأما ما تختص به المرأة من القرن والرتق ..

فالقرن : هو عظم يعترض الرحم يمنع من الإصابة ، والرتق : لحم يسد مدخل الذكر فلا تمكن معـــه الإصـــابة ، وله الخيـــار فيهما ، ولا يمكنها شق القرن ، ويمكنها شق الرتق إلا أنها لا تخير بشقه ؛ لأنه جناية عليها ، فإن شقته بعد فسخ الزوج لم يؤثر بعد وقوع الفسخ ، وإن شقته قبل فسخه ففى خيار الزوج وجهان :

أحدهما : له الخيار اعتبارًا بالابتداء ..

والثانى : لا خيار له اعتبارًا بالانتهاء ..

فأما الإفضاء : وهو أن ينخرق الحاجز الذى بين مدخل الذكر ومخرج البول فتصير مغطاة ، فلا خيار فيه : لإمكان الإصابة التامة معه ..

فلو كانت عاقرًا لا تلد ، أو كان الزوج عقيمًا لا يولد له فلا خيار فيه لواحد منهما : لأنه مظنون ، وربما زال بتنقل الأمنين ..

فأما العفلاء : ففى العفلة ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنه لحم مستدير ينبت فى الرحم بعد ذهاب العذرة ، ولا ينبت مع البكارة .. وهذا قول أبى عمرو الشيبانى ..

والتأويل الثانى : أنه ورم يكون فى اللحمة التى فى قبل المرأة ، يضيق به فرجها حتى لا ينفذ فيه الذكر ..

والتأويل الثالث : « أنه مبادئ الرتق ، وهو لحم يزيد فى الفرج حتى يصير رتقًا ، فيسد به الفرج فلا ينفذ فيه الذكر ، فإن كان العفل يكمل معه الاستمتاع التـــام ، فلا خيار فيه ، وإن لم يكمل معه الاستمتاع : لضيق الفرج أو انسداده حتى لا يمكن إيلاج الذكر ، ففيه الخيار » ..

٣- بطلان عقد الشركة ..

ويبطل عقد الشركة لأسباب وردت مجملة فى كتاب بدائع الصنائع لصاحبه أبى بكر بن أحمد الكاسانى حيث قال :

« وأما بيان ما يبطل به عقد الشركة ، فما يبطل به نوعان : أحدهما : يعم الشركات كلها ، والثانى : يخص البعض دون البعض ، أما الذى يعم الكل فأنواع منها الفسخ من أحد الشريكين ؛ لأنه عقد جائز غير لازم ، فكان محتملاً للفسخ ، فإذا فسخه أحدهما عند وجود شرط الفسخ ينفسخ ، ومنهـــا موت أحدهما ، أيهما مات انفسخت الشركة لبطلان الملك وأهلية التصرف بالموت ، سواء علم بموت

صاحبه أم لم يعلم ، لأن كـل واحـد منهما وكيـل صـاحبه ، وموت الموكـل يكـون عـزلاً للوكيـل علم به أم لم يعلم ، لأنه عزل حكمى ، فلا يقف على العلم ، ومنها ردة أحدهما مع اللحاق بدار الحرب بمنزلة الموت ، ومنها جنونه جنونا مطبقا ؛ لأن به يخرج الوكيل عن الوكالة ، وجميع ما يخرج به الوكيل عن الوكالة يبطل به عقد الشركة ، لأن الشركة تتضمن الوكالة على نحو ما فصلنا فى كتاب الوكالة .. »

٤- فى المضاربة والتأمين :

قامت مجلة البحوث الإسلامية بجمع لأقوال بعض العلماء السابقين والمعاصرين فى مسـألة قيـاس التأمين على عقد المضاربة فى مقال جاء فيه :

« نذكر فيما يلى ما تيسر من كلام العلماء السابقين فى قياس عقد التأمين على عقد المضاربة ، ثم نتبع ذلك بكلام العلماء المعاصرين ..

أما كلام العلماء السابقين فقد قالوا فى تعريف المضاربة : أن يدفع مالاً إلى غيره ليتجر فيه ويكون الربح بينهما على ما شرطا ، فيكون الربح لرب المال بسبب ماله ؛ لأنه نماء ماله وللمضارب باعتبار عمله الذى هو سبب وجود الربح .. وأما بيان أنواعها وشروطها وأحكامها ، فقـال : السمرقندى : ثم هى نوعـان مطلقة وخاصة ، أما المطلقة :

فأن يدفع المال إلى رجل ويقول : دفعت هذا المال إليك مضاربة على أن الربح بيننا نصفان ..

وقال أيضًا : ومن شروط صـحتها أن يكون الربح جزءًا مشاعًا فى الجملة .. ومنها إعلام قـدر الربح ؛ لأن الربح هـو المقصود فجهالته توجب فساد العقد فكل شرط يؤدى إلى جهالة الربح يفسد المضاربة ..

وقال أيضًا : المضاربة تشتمل على أحكام مختلفة ـ إذا دفع المال إلى المضارب فهو أمانة فى يده فى حكم الوديعة ؛ لأنه قبضه بأمر المالك لا على طريق البدل والوثيقة .. فإذا اشترى به فهو وكالة ؛ لأنه تصرف فى مال الغير بإذنه ، فإذا ربح صار شركة ؛ لأنه ملك جزءًا من المال بشرط العمل والباقى نماء مال المالك فهو له فكان مشتركًا بينهما ، فإذا فسدت المضاربة بوجـه من الوجـوه صارت إجارة ؛ لأن الواجب فيها أجـر المثـل ، وذلك يجب فى الإجـارات ، فإن خالف المضارب صار غاصبًا والمال مضمون عليه ؛ لأنه تعدى فى ملك غيره ..

وجاء فى مدونة الإمام مالك رحمه الله : قلت : أرأيت المقارضة على النصف أو الخمس أو السدس ، أو أقل من ذلك أو أكثر ؟ قال : فلا بأس بذلك عند مالك .. قلت : أرأيت إن دفعت إلى أجل مالاً قراضًا

ولم أسمِ له ثلثًا ولا ربعًا ولا نصفًا ، ولا أكثر من أن قلت له : خذ هذا المال قراضًا ، فعمل فربح ، وتصادق رب المال والعامل على ذلك قال : يرد إلى قراض مثله ..

وقال ابن جزى : وإنما يجوز بستة شروط .. الثانى : أن يكون الجزء مسمى كالنصف ولا يجوز أن يكون مجهولاً .. السادس : أن لا يشترط أحدهما لنفسه شيئًا ينفرد به من الربح ، ويجوز أن يشترط العامل الربح كله خلافا للشافعى ..

وقال أيضًا : فروع سبعة ــ الفرع الأول : إذا وقع القراض فاسدًا فسخ ، فإن فات بالعمل أعطى العمل قراض المثل عند أشهب ، وقيل : أجرة المثل مطلقًا وفاقًا لهما ، وقال ابن القاسم : أجرة المثل إلا فى أربعة مواضع وهى قرض بعرض أو لأجل أو لضمان أو بحظ مجهول .. الفرع الثالث : لا يفسخ القراض بموت أحد المتقارضين ولورثة العامل القيام به إن كانوا أمناء أو يأتون بأمين .. إلخ ..

وقال النووى : الركن الثالث : الربح ، ولـــه أربعـــة شروط .. الشرط الثالث أن يكون معلومًا ، فلو قال : قارضتك على أن لك فى الربح شركًا أو شركة أو نصيبًا فسد .. الشرط الرابع : أن يكون العلم به من حيث الجزئية لا من حيث التقدير ، فلو قال : لك من الربح أو لى منه درهم أو مائة ، والباقى بيننا نصفين فسد القراض .

وقال أيضًا : إذا فسد القراض بتخلف بعض الشروط فله ثلاثة أحكام : أحدها : تنفذ تصرفاته كنفوذها فى القراض الصحيح لوجود الإذن كالوكالة الفاسدة ، الثانى : سلامة الربح بكماله للمالك ، الثالث : استحقاق العامل أجرة مثل عمله سواء كان فى المال ربح أم لا ، وهذه الأحكام مطردة فى صور الفساد ..

وقال ابن قدامة : والشرط فى المضاربة على ضربين ؛ صحيح : مثل أن يشترط ألا يتجر إلا فى نوع معين أو بلد معين ، أو لا يعامل إلا شخصًا معينًا ، وفاسد وهو على ضربين ــ أحدهما : أن يضاربه ولا يذكر الربح أو يشترط جزءًا من الربح لأحدهما ولأجنبى ، والباقى بينهما ، أو يقول : خذه مضاربة والربح كله لك ، أو كله لى وما أشبه هذا مما يعود بجهالة الربح ، فإن المضاربة تفسد والربح كله لرب المال ، وللمضارب الأجر ، والثانى : أن يشترط عليه ضمان المال من الوديعة .. فهل يبطل العقد بهذا على روايتين ..

وقال الشيخ مرعى بن يوسف : والمضارب أمين بالقبض وكيل بالتصرف ، شريك بالربح ، أجير بالفساد ، غاصب بالتعدى ، مقترض باشتراط كل الربح له ، مستبضع باشتراط كل الربح لرب المال ..

وأما كلام العلماء المعاصرين :

فقال الشيخ الصديق محمد الأمين الضرير بعد ذكره لفتوى الشيخ محمد عبده :

ثم جاء بعد الشيخ محمد عبده الأستاذ عبد الوهاب خلاف ، وقال بجواز عقد التأمين على الحياة وأنه عقد مضاربة ؛ لأن عقد المضاربة فى الشريعة هو عقد شركة فى الربح بمال من طرف وعمل من طرف آخر ، وفى التأمين المال من جانب المشتركين الذين يدفعون الأقساط والعمل من جانب الشركة التى تستغل هذه الأموال ، والربح للمشتركين وللشركة حسب التعاقد وقد أورد الأستاذ خلاف نفسه على هذا القياس اعتراضًا هو أن شرط صحة المضاربة أن يكون الربح بين صاحب المال والقائم بالعمل شائعا بالنسبة ، وفى التأمين يشترط للمشترك قدر معين فى الربح = ٣ % أو ٤ % فالمضاربة غير صحيحة ..

وأجـــاب عنـــه : أولاً بما جـــاء فى تفسير آيات الربا فى سورة البقرة للشيخ محمد عبده وهو : لا يدخـــل فى الربا المحـــرم بالنص الذى لا شك فى تحريمه من يعطى آخر مالاً يستغله ويجعل له من كسبه حظًّا معينًا ؛ لأن مخالفة أقوال الفقهاء فى اشتراط أن يكون نسبيًّا لاقتضاء المصلحة ذلك لا شىء فيه وهذه المعاملة نافعة لرب المال والعامل معًا ..

ثانيًا : بأن اشتراط أن يكون الربح نصيبًا لا قدرًا معينًا خالف فيه بعض المجتهدين من الفقهاء وليس حكمًا مجمعًا عليه ..

مناقشة هذا الدليل :

قال الشيخ محمـــد بخيـــت المطيـــعى : ولا يجـــوز أن يكون العقد المذكور ـــ أى عقـــد التأمين ـــ عقـــد مضاربة كمـــا فهمـــه بعض العصريين ؛ لأن عقـــد المضـــاربة يلزم أن يكـــون المال من جانب المالك والعمـــل مـــن المضارب والربح على ما اشترطاه والعقـــد المذكور ليس كذلك ؛ لأن أهـــل القومبانية « الشركة » يأخذون المال على أن يكون لهم يعملون فيـــه لأنفسهم فيكون عقدًا فاسدًا شرعًا ؛ لأنه معـــلق على خطـــر ؛ تارة يقع وتـــارة لا يقع فهـــو قمار معنى ..

وقال الأستاذ محمد كامل البناء : إن هناك فرقًا واضحًا يتعذر معه قياس عقد التأمين على المضاربة وهو أن رب المال يتحمل الخسارة وحده وليس الأمر كذلك فى التأمين ، كما أنه لو مات رب المال فى المضاربة فليس لورثته إلا ما دفعه مورثهم لا يزيد شيئًا ، أما فى التأمين فإنه لو مات المؤمن استحق صاحب منفعة التأمين مبلغًا ضخمًا وهذه مخاطرة ينهى عنهـــا الشـــارع ؛ لأن ذلك لا ضابط له إلا الحظوظ والمصادفات ..

وقال الأستاذ الدكتور مصطفى زيد : الواقع أن عقد التأمين كان يمكن أن يكون من عقـــود المضاربة لولا أمران : أولهما أن طبيعة المضاربة تقتضى الاشتراك فى الربح أو الخسارة ، وليس فى طبيعة عقد التأمين أى تعرض للخسارة ، والثانى أنه من شروط المضاربة أن يكون الربح نسبيًا غير محدد ..

وقال الصديق محمد الأمين الضرير : والذى أراه أنه ليست هناك صورة من صور عقـــد التأمين يمكن قياسها على عقد المضاربة ، حتى لو تجاوزنا عن كون الربح فى المضاربة يشترط فيه أن يكون قدرًا شائعًا بالنسبة ، وذلك للأسباب الآتية :

١ ــ المبلغ الذى يدفعه رب المال للعامل فى المضاربة يظل ملكًا لصاحبه ولا يدخل فى ملك العامل ، وذلك بخلاف التأمين فإن القسط يدخل فى ملك الشركة تتصرف فيه تصرف المالك فى ملكه ..

٢ ــ فى حالة موت رب المال فى عقد المضاربة يستحق ورثته المال الذى دفعه مع ربحه إن كان ، أما فى عقد التأمين على الحياة فإن الورثة يستحقون عند موت المؤمن له المبلغ الذى اتفق عليه من الشركة بالغًا ما بلغ ، فلو أن شخصًا أمّن على حياته بمبلغ ألف جنيه ، ثم مات بعد أن دفع مبلغ مائة جنيه فقط للشركة فإن ورثته يستحقون الألف كاملة ، فكيف يقاس هذا العقد على عقد المضاربة ولا يصح أن يقال :

إن الشركة تتبرع بالزائد على ما دفعه المؤمن له ؛ لأن من خصائص عقد التأمين أنه عقد معاوضة وهو عقد ملزم للطرفين ، فالشركة ملزمة بدفع المبلغ المتفق عليه إذا وفى المؤمن له بالتزامه فى دفع الأقساط ..

٣ ــ فى حال موت صاحب المال فى عقد المضاربة يكون المبلغ الذى فى يد المضارب « العامل » فى ضمن تركة المتوفى يجرى فيه ما يجرى فى سائر أموال التركة ، أما فى عقد التأمين فإن المال المستحق لا يذهب للورثة مطلقًا ، وذلك فى حالة ما إذا عين المؤمن له مستفيدًا ــ وهذا من حقه ــ فإن جميع المال يذهب لهذا المستفيد ولو لم يكن للمتوفى مال غيره ولا حق لورثته فى الاعتراض ..

٥- علاج أمراض القلوب ..

وهـــذه خلاصـــة فى عـــلاج أمراض القلوب كما ذكرها الشيخ عبد الله بن جار الله فى كتابه (أمراض القلوب وشفاؤها) ، يقول فى مقدمتـــه :

فإن القلب يمرض كما يمرض الجسم ومرض القلب أخطر من مرض الجسم .. وترى الواحد من الناس إذا مرض جسمه بادر إلى الطبيب فى المستشفى لعلاجه .. ولكنه يمرض قلبه ولا يحس به ولا يتألم ولا يعالجه .. وفى الحديث « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد

وجلاؤها كثرة تلاوة كتـــاب الله ــ تعالى ــ وكثرة الذكر لله عز وجل » رواه ابن شاهين فى (الترغيب فى الذكر) ، وفى الحديث : « إن العبـــد إذا أذنب ذنبًا كانـــت نكتـــة سوداء فى قلبه فإن هو تاب ونزع صقل قلبه فإن عاد عادت حتى يسود قلبه فذلك الران الذى قال الله عنه : ﴿ كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين ١٤) » أخرجه النسائى والترمذى وقال : حديث حسن صحيح ..

ويستفاد مما تقدم أن ذكر الموت يجلو القلب ففى الحديث « أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت فإنه ما ذكر فى قليل إلا كثَّره ولا فى كثير إلا قلله » رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم وابن حبان والبيهقى ..

فإن الغنى إذا ذكر الموت زهد فى ماله والفقير إذا ذكر الموت قنع بما رزقه الله ، وكذلـــك مما يجلو القلب تلاوة القرآن الكريم المشتمل على الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والقصص والأمثال والعظات والتبشير والإنذار ، وكذلك التـــوبة إلى الله والاستغفار طلب المغفرة من الله فى جميع الأوقات من جميع الذنوب والسيئات تصقل القلب وتجلوه ..

وكذلك الإكثار من ذكر الله ــ تعالى ــ ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

الْقُلُوبُ﴾ (الرعد : ٢٨) والدعاء بقولك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ويا مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا إلى طاعتك وطاعة رسولك .. ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران : ٨) .

ويقول فى باب صلاح الجسد بصلاح القلب :

قال النبى ﷺ : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجســـد كله وإذا فســـدت فسد الجســـد كـــله ألا وهى القلب » رواه البخارى ومسلم .. والمضغة القطعة من اللحم وسمى القلب بها لصغره .. وفيه دليل على أن صلاح الجوارح وفسادها بحسب ما فى القلب ، فإن كان القلب سليمًا صلحت حركات الجوارح ونشأ عن ذلك فعل الطاعات واجتناب المحرمات ، وإن كـــان فاسدًا فسدت حركات الجوارح وانبعثت إلى المعاصى بحسب اتباع هوى القلب .. فالقلب ملك الأعضاء وبقية الأعضاء جنود له مطيعون ما يأمرهم به من خير أو شر فإن كان صالحًا كانت جنوده صالحة ، وإن كان فاسدًا كانت جنوده فاسدة ..

فلا صلاح للقلب حتى يستقر فيه معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه وقد قال الله ــ تعالى ــ ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء : ٨٨ ــ ٨٩) ..

والقلب السليم هو الذى سلم من كل شبهة تعارض الحق ومن كل شهوة محرمة .. وسلم من الشرك والشك والنفاق والحسد والحقد .. وعلى كل حال فالمعاصى كلها تمرض القلوب وتميتها ، وذكر الله وطاعته يحيى القلوب كما قال تعالى ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد : ٢٨) .

وقال الشاعر :

رأيت الذنوب تميت القلوب وقـد يورث الـذل إدمانها

وترك الذنوب حيـاة القلوب وخيـر لنفسـك عصيانها

نسأل الله العظيم أن يصلح فساد قلوبنا ، يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ، ويا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك وطاعة رسولك .. ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ .. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

ويقول نقلاً عن ابن القيم فى مفتاح حياة القلب :

« قال ابن القيم رحمه الله (ومفتاح حياة القلب : تدبر القرآن والتضرع بالأسحار وترك الذنـوب) ، قـال الله ـ تعـالى ـ : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (ص : ٢٩) .

فأخبر الله ـ تعالى ـ أنه أنزل هذا القرآن العظيم المبارك فى ألفاظه ومعانيه وأوامره ونواهيه وأحكامه .. فمن بركته أن من قرأ حرفًا منه فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها كما فى الحديث الذى رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .. ومن بركته أن مَنْ قرأه وعمل به لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة كما قال ابن عباس فى تفسير قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ : ومن بركته أن مَن تعلمه وعلمه فهو من خير الناس كما فى الحديث الذى رواه البخارى : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .. ومن بركته أنه يأتى يوم القيامة شفيعًا لأصحابه الذين كانوا يعملون به فى الدنيا كما فى الحديثين الذين رواهما مسلم فى صحيحه ..

وأخبر تعالى أنه أنزل القرآن من أجل التدبر وهو التفكر فى معانيه وأوامره ونواهيه بحيث إذا مرّ بآية يأمر الله فيها بأمر امتثله .. وإذا مرّ بآية ينهاه الله فيها عن شىء انتهى عنه وتركه .. وإذا مرّ بآية رحمة رجا رحمته وسأله من فضله وإذا مرّ بآية وعيد بالعذاب خاف من عذاب ربه واستعاذ بالله منه .. وإذا مرّ بآية تسبيح سبح الله ، وبذلك يزيد الإيمان والعلم والهدى والتقى قال الشاعر :

فتدبر القرآن إن رمت الهدى فالعلم تحـت تدبر القـرآن

وقال الله ـ تعالى ـ فى وصف المؤمنين : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ

زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (الأنفال : ٢) لما فيها من الوعد والوعيد الباعث على الخوف والرجاء ..

وقال تعالى : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد : ٢٤) .. ومن أسباب حياة القلب التضرع بالأسحار أى الرغبة إلى الله ــ تعالى ــ بالدعـــاء والاستغفار والتـــوبة وسؤال المغفرة والفوز بالجنة والنجاة من النار وقت النزول الإلهى آخر الليل كما فى الحديث الصحيح : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقـــول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » رواه البخـــارى ومسلم ففيـــه الترغيب والحث على القيام آخر الليل للصلاة والدعاء والاستغفار وسؤال الجنة والنجاة من النار والدعاء بصلاح الدنيا والآخرة ، فإن الله ــ تعالى ــ أمر بالدعاء ووعد عليه بالإجابة وهو سبحانه لا يخلف الميعاد ومن أوقات الإجابة آخـــر الليل وذلك فضـــل الله يؤتيـــه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ..

ومن أسباب حياة القلب ترك الذنوب التى تميت القلب وفى الحديث « أن العبد إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء فى قلبـــه ، فإن تاب واستغفر صقل قلبه ، وإن عاد إلى الذنب عاد السواد حتى يسود قلبه » فذلك الران الذى قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا

كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين : ١٤) . أخرجه النسائى والترمذى وقال : حديث حسن صحيح وقال الشاعر :

رأيت الذنوب تميت القلوب وقـــد يـــورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب وخيـــــر لنفســـك عصيانها

ولما كانت أمراض القلوب وشفاؤها من الأهمية بمكان جمعت فيها هذه الرسالة ، ولا يفوتنى أن أنبه القارئ الكريم إلى أهم المراجع فى هذا الموضوع وهى الجزء العاشر من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص١ ــ ١٤٨ والجزء الأول من كتاب إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم رحمهما الله ــ تعالى ــ فقد ذكرا فى هذا الموضوع ما يشفى ويكفى » ..

وفى أقسام القلوب يقول :

القلوب ثلاثة : صحيح ، وهو الذى قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ومن كل شبهة تعارض خبره فسلم من عبودية ما سواه وسلم من تحكيم غير رسوله ..

والقلب الميت : ضد هـــذا هو الـــذى لا حياة به فلا يعرف ربه ولا يعبده بأمره ..

والقلب الثالث : قلب له حياة وبه علة ففيه من محبة الله والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه مما هو مادة حياته ، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والأخلاق الرذيلة ما هو مادة عطبه وهو ممتحن بين هذين الداعيين ..

فالقلب الأول : حي مخبت لين واعٍ ..

والثانى : يابس ميت ..

والثالث : مريض فإما إلى السلامة وإما إلى العطب .. وأمراض القلوب ترجع كلها إلى أمراض الشهوات والشبهات وحياة القلب وإشراقه مادة كـــل خير فيه ، وموته وظلمتـــه مادة كل شر فيه ولا يكـــون صحيحًا حيًّا إلا بمعرفة الحق وإيثاره ، ولا سعادة له ولا نعيم ولا صلاح حتى يكون الله وحده هو معبوده وغاية مطلوبه ، ولا يتم ذلك إلا بزكاة قلبه وتوبته واستفراغه من جميع المواد الفاسدة والأخلاق الرذيلة ولا يحصل له ذلك إلا بمجاهدة نفسه الأمارة بالسوء ومحاسبتها ومجاهدة شياطين الإنس والجن ؛ شياطين الإنس بالإعراض عنهم ومقابلة الإساءة بالإحسان وشياطين الجن بالاعتصام بالله منهم ومعرفة مكائدهم وطرقهم والتحرز منها بذكر الله ـــ تعالى ـــ والتعوذ به منهم ..

ومدار اعتلال القلوب وإسقامها على أصلين : فساد العلم وفساد القصد ويترتب عليهما داءان قاتلان : الغضب والضلال ، فالضلال نتيجة فساد العلم والغضب نتيجة فساد القصد ، وهذان المرضان ملاك أمراض القلوب جميعها وشفاء ذلك بالهداية العلمية والهداية العملية معرفة الحق واتباعه والقرآن كله شفاء لهذين المرضين ولغيرهما .. ففيه الهداية التامة .. اهـــ .. من مدارج السالكين لابن القيم » ..

ويقول :

« وأعظم نعمة أنعم الله بها على عباده بعثة عبده ورسوله محمد ﷺ بالهُدى ودين الحق ، وهما العِلم النافع والعمل الصالح .. وأصل ذلك وأساسه عبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه ، فأشرقت ببعثته قلوب من استجابوا له بعد ظلامها ، وخشعت ولانت بعد قسوتها ، ونالوا بذلك من القوة بعد الضعف ، والعز بعد الذل ، والعلم بعد الجهل ، ما فتحوا به البلاد وقلوب العباد ، وعلت بذلك كلمة الله ، وصارت كلمة الكفر إلى السفال والفشل والإذلال ، وعزل سلطان الجاهلية والإشراك ، فلله الحمد على ذلك إلا أن إبليس ـــ أعاذنا الله منه ـــ لشدة عداوته لبنى الإنسان وعظيم تغلغله بالكفر والطغيان ومزيد جده فى الصدف عن طاعة الرحمن ، وإن كـــان قد

صدر منه ما صدر من اليأس ؛ لم يدع الجد فى إطفاء هذا النور والتنفير عن الحق والترغيب فى أنواع الكفر والإلحاد والفجور والدعوة إلى البدع والإكثار من الأزّ إلى المعاصى والشرور ، وبث الشبه والشبهات وألوان المغريات على أيدى حزبه ومن استجابوا له من شياطين الإنس ، ومن أنواع الخدع بزينة الدنيا وزخارفها الفتانة وضروب الشهوات وشتى أسباب الصد عن ذكر الله وعن الصلاة من أجناس الملاهى وصنوف المسكرات حتى ثقل على القلوب سماع القرآن وحصل التهاون بوعيده وعدم الاهتمام بزواجره وتهديده .. ولا سيما بعد ما تصرمت أيام القرون المفضلة فإنه قد اشتد الخطب وانفتح باب الشر على مصراعيه ولم يزل فى مزيد .. وإن كان ربنا تبارك وتعالى قد مَنَّ ببقاء أصل هذا النور وتأييد هذا الحق بما أجراه على أيدى علماء الصدق وورثة الرسل من تجديد هذا الدين وإقامة حجج الله على عباده .. ومع ذلك فالأمر على ما وصفته من تأثير مساعى إبليس وجنوده على الأكثر حتى اشتدت الكربة وصار الدين فى غاية من الغربة ولا سيما أزماننا هذه التى صار فيها عند الأكثر المعروف منكرًا والمنكر معروفًا والسُّنة بدعة والبدعة سُنَّة .. ربى على ذلك الصغير وهرم عليه الكبير ، وطغى طوفان المادة وأخفى غبار الشبهات والشهوات وضوح الجادة وفشا الجهل وتكلم فى الأمور

الدينية من ليس لها بأهل حتى صرح من صرَّح من جهلتهم فيما يكتبونه وينشرونه بمزيد الحث والتحريض على ما هو من أعظم ما يهدم الإسلام وينسى أصوله العظام وأصبحت القلوب إن لم تمت فى غاية من أنواع الأمراض مرض الجهل ومرض الشهوة ومرض الشبهة حتى استولت عليها القسوة والظلمة ، فإنا لله وإنَّا إليه راجعون .. ..

فيالها من أمراض ما أصعبها مع الإعراض عن الأدوية المحمدية ، وما أسهلها وما أخفها وما أسرع برأها متى عُولجت بالدواء الذى بُعِثَ به طبيب القلوب الأكبر ﷺ ..

وقد سَمَّى النبى ﷺ الجهل مرضًا لما ينشأ عنه من عمى القلوب الذى هو المرض ــ أى مرض ــ وفيما بعث به ﷺ من الكتاب والسُّنَّة لهذه الأمراض أنجح دواء وأنفع شفاء .. قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا ﴾ ..

فهلمَّ إخوانى نداوى هذه الأمراض بأدوية كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ بتدبر أوامرهما ونواهيهما ووعدهما ووعيدهما وزواجرهما ومذاكرة بعضنا مع بعض وقيامنا لله مَثْنى وفُرادى لنتذكر ونتفكر ونتناصح

ونتآمر بالمعروف ونتناهى عن المنكر ونحب فى الله ونبغض فى الله ونوالى فى الله ونعادى فى الله ونتعاون على البر والتقوى ونبحث عن أدوية تلك الأمراض التى تحصيلها من أسهل شىء عندما تحصل القلوب على الصدق فى طلب هذا الدواء والإقبال على الله فى التماس السَّلامة من تلك الأدواء .. قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ ..

هلم إخوانى نشخص سائر أمراض قلوبنا ونشخص أدويتها ونجاهد نفوسنا على معالجتها من تلك الأمراض المهلكة ، ويحض بعضنا بعضًا ويحذّر كل منَّا نفسه وأخاه من وبيل أخذ الله وشديد عقابه الدنيوى والأُخروى ، ومن الإقامة على أسباب تغيير ما من الله به من التوحيد وتحكيم الوحى المحمدى والعز والتأييد والأمـــن والصحة والهدوء .. ﴿ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ وفى الأثر : أن الله أوحى إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل أن قل لقومك أنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حوَّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون .. إخوانى : إن ربنا تبارك وتعالى لم يغير على قوم نوح بإهلاكهم بالطوفان وسائر من أوقع بهم عقابه وأحلَّ بهم

سطوته إلا بعـــد أن غيَّـــروا بمعصيتهم رسله ، وفسقهم عن طاعته فاستوجبوا التدمير ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ ..

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، وصل وسلم على خير من ثبت فؤاده بذكرك ، وجعلته ذكرا له ولقومه سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ..

أ. د./ مبروك عطية

الأستاذ بجامعة الأزهر

الموضـــــــــوع	الصفحة
المقـــدمـة :	٣
الفصل الأول :	٧
غش القلوب وعلاماته	
الفصل الثانى :	١٢٣
ما يتوهم أنه من غش القلوب	
الفصل الثالث :	١٤٣
فى الضمانات الشرعية للوقاية من غش القلوب	